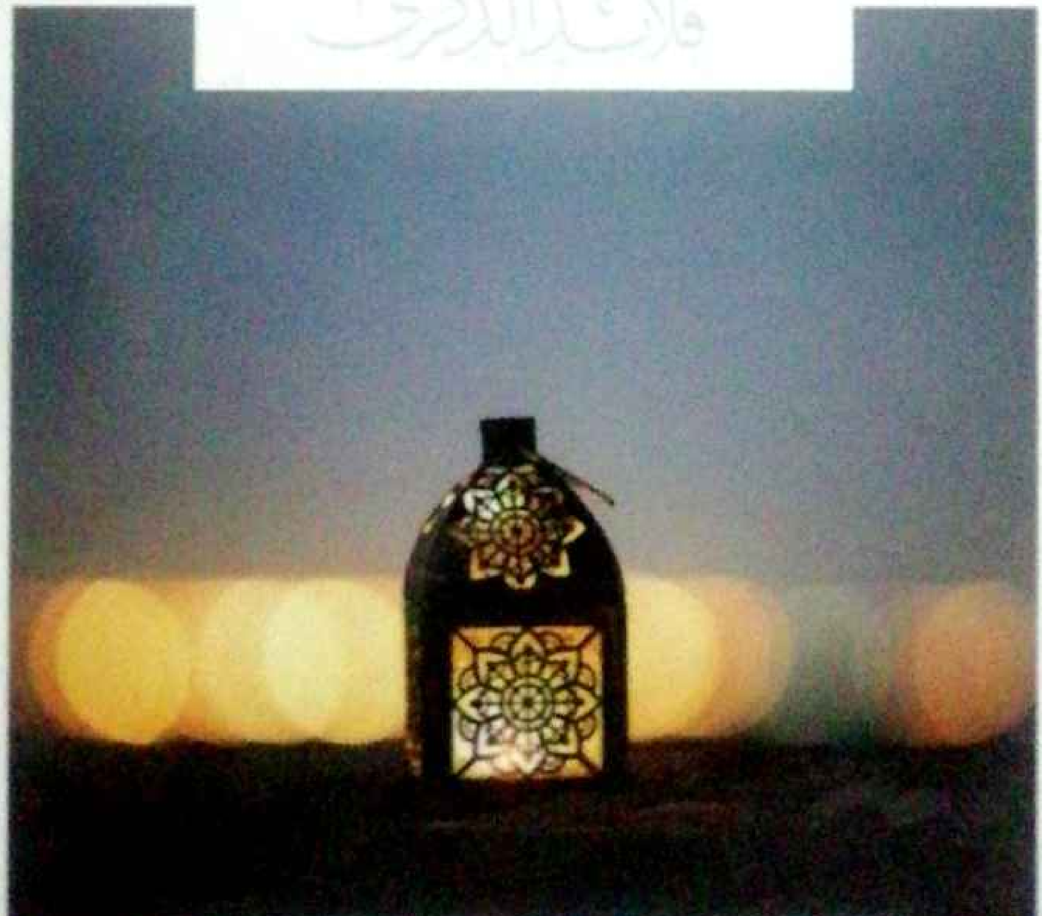
شركة دار رسالة البيان
١٧

الطبعة الثانية

قلائد الذكرى ١

قلائد الذكرى ١



عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

قلائد الذكرى ١

قلائد الذكرى ١

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

الطبعة الثانية ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩

ح **دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التويجري، عبد اللطيف بن عبد الله

قلائد الذكرى. / عبد اللطيف بن عبد الله التويجري - الرياض، ١٤٤٠هـ

ص ١٧٦؛ ١٥× ٢٢ سم

ردمك: ٣ - ٠ - ٩١١٦١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الوعظ والإرشاد ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٠/١٦٥٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١٦٥٥

ردمك: ٣ - ٠ - ٩١١٦١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إِهْدَاءُ

إلى من علمني حب القراءة والكتابة والعلم

إلى من يوصيني دائمًا بلزوم قلائد السعادة

«اللَّهُمَّ اجعلني ممن إذا أُعطِيَ شكر

وإذا ابتُلي صبر

وإذا أذنب استغفر»

إلى قرة العين .. سيدي الوالد

عبدالله الحمد التويجري

فهرس

فَاتِحَةُ القَلَائِد

(مَن وجد للذِّكْرَى في قلبه موقعًا فليعلم أنه مُؤمن؛ فإن اللهَ تعالى يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾)

سُليمان بن حَبيب المحاربي رحمه الله

الحمدُ لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، والصلاةُ والسلام على النبي المصطفى، والرسول المجتبى، وعلى آله وأصحابه ومَن اقتفى، أمَّا بعد:

فإنَّ الباحثَ في المصادر الشرعية واللُّغوية عن دلائل (الذِّكْرى) يجدُ أن لها موارد متنوعة، وأساليب جاذبة، وقوالب مؤثرة، ويزدانُ جمالها إذا تعلقت بالفهوم فحسَّنتها، وبالقلوب فطهَّرتها، وبالنفوس فطيبتها، وبالأشواق فهيَّجتها:

قِفا نَبْك من ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ

بسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ[1]!

وحسبك بها رونقًا وجمالًا أنها تجلِّي عن القلب صداه فيلين بعد قسوة، وينجلي بعد خسوف، ويشتاق بعد الغفلة، ويتذكر بعد النسيان.

---

(١) البيت مطلع معلقة امرئ القيس الشهيرة، ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٨).
وسِقْط اللِّوَى: منقطع الرمل حيث يستدق من طرفه، واللِّوى: رمل يعوج ويلتوي، والدَّخُول وحَوْمَل: موضعان. ينظر: «شرح المعلقات السبع» للزَّوْزَني (ص٣٥-٣٦)، و«معجم البلدان» (٢/ ٣٢٥، ٤٤٥).

ومن جمال «**الذِّكْرى**» أنها وظيفة الأنبياء الأخيار: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، الذين خصَّهم الله بذِكْرى الدار: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

قال مالك بن دِينار رحمه الله: «نزع اللهُ ما في قلوبهم من حُبِّ الدنيا وذِكْرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذِكْرِه»[١].

وتاج محاسن الذِّكْرى أنها من أجلِّ ما بُعثت به الرسل: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩].

ولذلك كانت المقصد الجامع لوظيفة خاتمهم ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ٤] ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

ومن بديع الذِّكْرى أن بينها وبين (التذكير والذِّكر) قرابة وصلة، فتأويل الذِّكْرى بالتذكير، والذِّكْرى بالذِّكر، جارٍ وفق سنن العرب في كلامهم كما قاله الفرَّاء[٢]، بل فضَّل الراغب «الذِّكْرى» على الذِّكر؛ لأنها تدل على كثرة الذِّكر[٣].

وكما في رحم اللغة آصرة وأخوة بين الذِّكر والتذكير والذِّكْرى، كذلك في شجرة الإيمان وشيجة بين التذكير والتشويق، كما في أثر

---

(١) ينظر: «معاني القراءات» للأزهري (٢/ ٣٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٧٦).
(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٠/ ٩٦).
(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ص٣٢٩).

عمر بن الخطاب الشهير مع أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «**ذكِّرنا ربَّنا**»، وفي رواية: «**شَوِّقْنَا إِلَى رَبِّنَا!**»(١).

وشجرة الإيمان تُسقى بالذِّكْرى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] قال المروزي رحمه الله: «والذكر من أهل الإيمان إيمانٌ متى أَتَوْا به ازدادوا إيمانًا»(٢).

وكان من خبر الصحابة الكرام رضي الله عنهم: «**اجلسْ بنا نؤمن ساعةً**»(٣).

وإن لم تكن الذِّكْرى هي فحوى تلك المجالس فماذا سيكون؟ فغايتهم من تلك المجالس: «تَعَالَوْا فلْنَذْكُرِ اللهَ ونَزْدَدْ إيمانًا، تَعَالَوْا نذكُرُهُ بطاعته لعلَّه يذكرُنا بمغفرته»(٤).

والمورد الأول للذِّكْرى في القرآن الكريم هو القرآن نفسه، حبل الله المتين، قال تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤١٧٩ - ٤١٨١)، وابن سعد (٤/ ١٠٢)، وأحمد في «الزهد» (٦٢٤)، والدارمي (٣٤٩٣، ٣٤٩٦)، وابن حبان (٧١٩٦).

(٢) ينظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٧٨٧).

(٣) ينظر: «الإيمان» لأبي عُبيد (ص٤٤-٤٧)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٣٦٣)، و«صحيح البخاري» (١/ ١٠)، و«السنة» للخلّال (١١٢١)، و«تغليق التعليق» (٢/ ٢٠).

(٤) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٤٢٦).

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] قال عليٌّ ﷺ: «**ذكِّر** بالقرآن»[١]. ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] كما كان ذِكْرى للأمة وللأنام كان ذكرًا لها كذلك: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ومن مواطن الذِّكْرى في القرآن: أمثاله التي لا يعقلها إلا العالمون، فقد ضرب اللهُ حال الدنيا بالزرع الذي يخضر ويزهو ثم ما يلبث أن يكون حطامًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] «فهم **يذكرون** بها عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسَّر لهم هذا الماء، وخزنه بخزائن الأرض تبعًا لمصالحهم.

ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، **ويذكرون** به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة»[٢].

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده»، كما في «المطالب العالية» (١٥/ ٢٦٥)، وابن مردويه في «تفسيره»، كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٦٨٧).
(٢) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٧٢٢).

ومن مواطن الذِّكْرى: قصص الأنبياء: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤] وهي في القِدْح المُعَلَّى من ذِكْرى القرآن إذ كانت ذِكْرى ممزوجة بالرحمة بيَّنها الإمام ابن كثير رحمه الله فقال: «﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾، أي: وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسَّوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك»[١].

ونظيرتها آية سورة ص: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ «أي: وليتذكَّر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن مَن صبر على الضر أن الله تعالى يثيبه ثوابًا عاجلًا وآجلًا ويستجيب دعاءه إذا دعاه»[٢].

ومن مواطن الذِّكْرى في القرآن: تذكير القلوب بهلاك الظالمين والتحذير من أفعالهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] يتذكَّر بها ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ لمَن كان له عقل من هذه الأمة، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم، خوفًا من أن يحل بهم مثل الذي حل بهم من العذاب[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٣).
(٢) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٧١٤).
(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٦٢).

ومن مواردها في كتاب الله العزيز: التذكير بالنار، نعوذ بالله من النار: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]. قال الإمام الطبري في «تفسيره»: «وما النار التي وَصَفْتُها إلَّا تذكرةً ذُكِّرَ بها البشرُ»[١].

ومن مواردها: الوعد والوعيد: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٣، ١١٤]، فما أوعده الله من هذه الأمور من النهي إلى الركون إلى الظلم، والأمر في إقامة الصلوات اللواتي يذهبن السيئات، **تذكرة** للقوم الذين يذكرون وعد الله، فيرجون ثوابه ووعيده، فيخافون عقابه، لا مَن قد طُبع على قلبه، فلا يجيب داعيًا، ولا يسمع زاجرًا[٢].

وبعد هذا التطواف مع موارد الذِّكْرى تنبثق قلائد هذا الكتاب لتكون ذِكْرى للقلب، وتذكيرًا له من طوفان الفتن والشبهات، وإحياء لذكرى المصطفين الأخيار لعلنا جميعًا أن نكون ممن أخلصهم اللهُ بخالصة ذِكْرى الدار.

قلائد الذِّكْرى عظاتٌ نسجت من بصائر الذكر، ومعالم أخذت من نور السنن، ورشفاتٌ من مورد السلف العظيم، وقطراتٌ من ندى مجالس ذكراهم؛ وصلًا لعهدهم، وسيرًا على منوالهم: «**ذكِّرنا بربنا**».

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٦١٧).

قلائد الذِّكْرى تذكيرٌ على طريق العلم والدعوة لراقمها أولًا، لعل الغريق ينجو، ولعل المتخلِّف يلحق، ولعل المتأخِّر يتقدَّم، وعسى أن تكون ذخرًا لنا عند الله بعد مماتنا.

«ولْيعْذِر الواقف عليه، فنتائج الأفكار على اختلاف القرائح لا تتناهى، وإنما ينفق كل أحد على قدر سعته، لا يُكلف الله نفسًا إلّا ما آتاها، ورحم اللهُ مَنْ وقف فيه على سهو أو خطأ فأصلحه عاذرًا لا عاذلًا، ومنيلًا لا نائلًا؛ فليس المبرّأُ من الخَطَل إلا من وقى اللهُ وعصم، وقد قيل: الكتاب كالمكلَّف لا يسلم من المؤاخذة ولا يرتفع عنه القلم، والله تعالى يقرنُه بالتوفيق، ويُرشِد فيه إلى أوضح طريق، وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب»[(١)].

عَبْدُ اللَّطِيفِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّوَيْجِرِيّ

رياضُ نجد

١ من شهر الله المحرم ١٤٤٠هـ

a44t@hotmail.com

(١) ينظر: «صُبح الأعشى» للقلقشندي (١/ ١٠).

دَعْوَةٌ لِلتَّفَكُّرِ

(من أفضل العمل: الورع والتفكُّر)

الحسن البصري رحمه الله

من أعظم عطايا النعم نعمة العقل الذي هو آلة التفكير، ولقد جاء في القرآن الكريم الحث على التفكير في مواضع عديدة، حيث وردت مادة (التفكر) في زهاء تسعة عشر موضعًا في القرآن الكريم، وخُتمَت سبع آيات[1] من كتاب الله بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في إشارة إلى أن هذه الآيات العظيمة التي تُذْكَر قبلها؛ لا ينتفع بها إلا ذوو العقول المتفكرة.

وفي مواضع أخرى جاء التشنيع والتوبيخ على القوم الذين عطَّلوا عقولهم وتفكيرهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

هذه الآيات وغيرها تُظهر للمتأمِّل أهمية العقل الذي هو أداة التفكير، وأنه نعمةٌ ربانيةٌ عظيمةٌ اختص اللهُ بها الإنسانَ، وجعله مناط

---

(١) كما في «سورة يونس»، الآية (٢٤)، و«سورة الرعد»، الآية (٣)، و«سورة النحل» في موضعين، الآية (١١) و(٦٩)، و«سورة الروم»، الآية (٢١)، و«سورة الزمر»، الآية (٤٢)، و«سورة الجاثية»، الآية (١٣).

التكليف، وميَّزه به عن غيره من بين سائر الجمادات والعجماوات، وما نال العقل ذلك إلا لأنه منطلق النظر والتفكر الذي هو من أفضل الأعمال وأشرفها؛ «وذلك لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح؛ فكان عمله أشرف من عمل الجوارح»(١).

ولقد كثر الحث في كتاب الله تعالى على هذه العبادة الجليلة، حيث إنها تورث العلم والمحبة، والنور والإيمان، وهي عبادة أهل الصلاح والتقوى(٢)، يقول عامر بن عبد قيس: «سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان: التفكر»(٣).

جاء في «التعريفات» للجرجاني أن المراد بالتفكر هو: إعمال القلب في النظر في الأدلة(٤).

وما يعنينا من الأدلة هنا أنها الآيات الواردة في كتاب الله ﷻ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

---

(١) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١٩).

(٢) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا، كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٢)، وينظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٥).

(٤) ينظر: «التعريفات» للجرجاني (ص٥٤).

ولو تأملنا مجال التفكّر في آيات القرآن لبرز لنا مجالان عظيمان أشار إليهما الإمام ابن القيِّم في كتابه القيِّم: «مفتاح دار السعادة»[1]:

فالمجال الأول هو: التفكر في الدليل القرآني: وفيه يكون التفكر في آيات الله المسموعة التي حثّ الله ﷻ على التفكر فيها وتدبُّرها في أكثر من نصٍّ في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وذلك أن المرء يتفكّر في هذه الأدلة حين سماعها أو تلاوتها، وما تتضمنه من دلائل باهرة تحث على توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ويتفكر أيضًا فيما جاء فيها من معجزات ودلائل وبشارات ونذارات وعبرة وأحكام، ونحوها، ويتفكر في معجزة ألفاظه، وعظمة أحكامه، وقوة حججه وبراهينه، إلى غير ذلك من مجالات الفكر ومداراته.

فهذا التفكُّر يورِّث في القلب محبةَ الخالق وتعظيمَه، وإخلاصَ العبادة له، والتوكُّلَ عليه، وزيادة الإيمان واليقين، وغير ذلك من مقامات العبودية وأعمال القلوب.

---

(١) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٣٨).

والمجال الثاني: التفكر في الدليل العياني: وهو آياته المشهودة، ولقد أثنى الله ﷻ على مَنْ يتفكر في ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

وقد ثبت في «صحيح ابن حبان»، وغيره مرفوعًا: «**لقد نزلت عليَّ الليلةَ آيةٌ، ويلٌ لمَن قرأها ولم يتفكَّر فيها...**». ثم تلا هذه الآية[1].

فتأمَّل -رحمك الله- كيف أن الآيات الواردة في القرآن تلفت الأنظار إلى الآيات المشاهَدة من أجل إعمال التفكر، وتأمَّل أيضًا كيف خُتِمت بالدعوة والحث على التفكُّر.

تَفكَّر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وتفكَّر في هذه الآية أيضًا وما فيها من تجانس وتماثل وعبرة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. وتفكَّر في هذا المشهد البديع،

---

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في «أخلاق النبي ﷺ» (٥٤٤)، وابن حبان (٦٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٨).

والإعجاز الفريد: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨- ٦٩].

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة المشاهَدة في الآفاق، والمعجزات الباهرة المتقنة في هذا الكون الفسيح؛ فمشهد السماوات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، ومشهد جميع المخلوقات، في تناسقها وإبداعها، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا، ولو تلقيناه كمشهدٍ جديدٍ تتفتَّحُ عليه العيون أوَّل مرَّة لاهتزت له مشاعرنا ونفوسنا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن جميل ما يُحكى في هذا الباب ما قاله ابن الجوزي عن نفسه: «عَرَضَ لي في طريق الحجِّ خوفٌ من العرب[١]، فسِرْنا على طريق خَيْبَرَ[٢]، فرأيت من الجبال الهائلة والطُّرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عَظَمَةُ الخالق ﷻ في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر

---

(١) كان ذلك في حجته الثانية سنة (٥٥٣هـ)، أما الأولى فكانت سنة (٥٤١هـ)، ذكر ذلك محقِّق «صيد الخاطر»، ويعني بالعرب: الأعراب الذين كانوا يقطعون الطريق على القوافل.

(٢) خيبر ناحية شمال المدينة على طريق الشام، ومعنى «خيبر» بالعبرانية: الحصن.

الطُّرُق نوعُ تعظيمٍ لا أجده عند ذكر غيرها، فصحتُ بالنفس: ويحك! اعْبُري إلى البحرِ، وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالًا هي أعظم من هذه، ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه؛ فإنَّك ترَيْنَهُ بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كَذَرَّةٍ في فلاةٍ، ثم جولي في الأفلاكِ، وطوفي حولَ العرشِ، وتلمَّحي ما في الجِنان والنيران، ثم اخرُجي عن الكُلِّ، والتفتي إليه؛ فإنك تشاهدين العالم في قَبْضَةِ القادر الذي لا تقفُ قدرتُهُ عند حدٍّ، ثم التفتي إليكِ، فتلمَّحي بدايتكِ ونهايتكِ، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلّا العدمُ، وفيما بعد البلى، وليس إلّا الترابُ.

فكيفَ يأنسُ بهذا الوجودِ من نَظَرَ بعينِ فِكْرِهِ المبدأَ والمنتهى؟! وكيف يغفُلُ أربابُ القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟!)[1].

إنَّ الملاحظ على كثير من المنتسبين إلى الإسلام في زمننا يجد أنهم أصناف في تعاملهم مع التفكير:

- فقوم شُغِلوا عن التفكير السليم بتفكير عقيم، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فأصبح تفكيرهم الدائم في الدنيا وملذَّاتها وزخرفها؛ فهم في تفكير وشغل في الليل والنهار، وأوصدوا على أنفسهم مجال التفكير النافع فضمرت في قلوبهم حقائق العبادات،

---

(١) ينظر: «صيد الخاطر» (ص١٦٩).

وقلَّ التفكير والاهتمام بالآخرة، ونسي كثيرٌ منهم نفسه ومحاسبتها، وتذكيرها بما خلقت له، وإلى أين مصيرها[1].

- وقوم جنحوا في التفكير إلى ما وراء حدود العقل، واقتحموا أمورًا لم يعطَ العقل القدرة على إدراكها وتصوُّرها، فعظَّموا العقل وقدَّموه على النقل فوُكِلوا إليه، فازدادوا حيرة وشكوكًا.

- وقوم تبلَّد عندهم التفكير فأصبحوا ينظرون إلى آيات الله المسموعة والمشهودة دون أن تتحرك لذلك قلوبهم.

- وقوم عطَّلوا تفكيرهم، وأسلموا عقولهم إلى غيرهم، فصاروا لا يرون إلا بأعينهم، ولا يفكرون إلا بتفكيرهم.

والواجب على المكلَّف أن يشغل نفسه بهذه العبادة الجليلة في حدودها ومجالاتها المنضبطة، ويتعاهدها في جميع الأحوال؛ وذلك أن التفكير السليم يوصل صاحبه إلى الخير في الدنيا والآخرة؛ لأن «أصل الخير والشرِّ من قِبَل التفكّر؛ فإن الفِكْرَ مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفعُ الفِكْرِ الفكرُ في مصالح المعاد، وفي طريق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها»[2].

---

(1) عن ذي النون المصري قال: «لا يتفكر القلب لغير الله، إلا كان عليه عقوبة». ينظر: «حلية الأولياء» (٩/ ٣٨٣).

(2) ينظر: «الفوائد» لابن القيم (ص١٩٨).

إننا نعيش في زمن كثرت فيه الفتن، زمنٍ يحسُّ فيه المؤمن الصادق بغربة شديدة، لا يسليه فيها ولا يذهبها عنه إلا العيش مع القرآن الكريم، والتفكر في معانيه، والنهل من معينه، والاتجاه إليه اتجاهًا صحيحًا بكامل أحاسيسه ومشاعره، بقلبه وقالبه: تلاوة وتدبرًا، وتفكرًا وتطبيقًا؛ فالعيش مع القرآن الكريم مزية لا تعدلها مزية، ومرتبة لا تفوقها مراتبة؛ لأنه الملاذ عند الفتن، والمنقذ من المصائب والمحن.

وإن مما يحزُّ في نفوس المصلحين والغيورين في واقعنا المعاصر بُعْدَ المسلمين عن القرآنِ الكريم، والعيش في رحابه، والتدبرِ في آياته، والتفكرِ في معانيه، والاطلاعِ على مقاصده وحكمه العظيمة؛ حيث إن استشعار ذلك كله هو الطريق الصحيح الموصل للامتثال والتعظيم لله رب العالمين، وهو الطريق الموصل أيضًا للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

إنها دعوة للجميع للتفكر والتأمل في المجالات التي أمرنا الله ﷻ بالتفكر فيها، والاعتبار بما فيها من الهدايات والمعاني؛ فالتفكر السليم أصل الخير على العبد في معاشه ومعاده.

إنها دعوة للتفكر في عَظَمة القرآن الكريم، والتفكر في معانيه وآياته والعيش في رحابه.

وهي دعوة للتفكر في آيات الله في الآفاق والأنفُس، وفي نعمه الظاهرة والباطنة.

وهي دعوة للتفكر في سِيَر الأنبياء والصالحين والمجدِّدين، في سِيَرهم مع أقوامهم، وفي أحوالهم، وفي عاقبة أمرهم.

إنها دعوة للتفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه؛ من أجل تجديد الإيمان، وفتح آفاق العلم والإحسان، وشغل القلب بأعظم الأعمال، والتعرف إلى عَظَمة الخالق -جل في علاه- والافتقار إليه، والانطراح بين يديه، والتلذذ بمناجاته، سبحانه وتعالى.

إنها دعوة لإحياء هذه العبادة الجليلة «عبادة التفكر» موجَّهة لكلِّ مسلم؛ كلٌّ على قدر استطاعته، في البيت والمدرسة والمسجد؛ لنحيا حياة قرآنية ربانية.

وإنها فرصةُ اللحاق بركب السلف الأخيار، الذين عرفوا فضل هذه النعمة فأعطوها حقَّها، وعَوَّدوا قلوبهم عليها[1]، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من الخير والفلاح، ولقد صدق القائل:

إذا المــــرءُ كـانـت لــه فكـرة

فـفـي كــلِّ شيءٍ لــه عــبرة[2]

* * *

(١) قال أبو سليمان الدَّاراني: «عوِّدوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر». ينظر: «حلية الأولياء» (٩/ ٢٧٤).

(٢) كان الإمام سفيان بن عُيينة رحمه الله كثيرًا ما يتمثل هذا البيت. ينظر: «حلية الأولياء» (٣٠٦/٧).

إِصْلَاحُ طَرِيقِ الإِصْلَاحِ

(الإيمان أفضل الإصلاح)

ابن تيمية رحمه الله

في ظِلِّ واقع الأمة الراهن، وخصوصاً مشهدها الثقافي والسياسي؛ غالبًا ما تكثر الرُّؤى والأفكار المريدة للإصلاح والنهضة.

والمتأمِّل في النهوض الإصلاحي الحقيقي الشامل يجد أنه لا بد أن يستند إلى **محورية الكتاب والسنة**، وذلك في جميع مجالات الحياة، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية، وطالما تمسَّك أهل السنة وأتباع منهاج السلف الصالح بهذا المحور الأساس في جميع القضايا والمستجدات؛ لأمرين مهمين: **أحدهما نظري، والآخر واقعي**:

فأمَّا النظري: فبسبب ما ورد من نصوص شرعية كثيرة تؤيِّد ذلك في مجالات متعددة، حيث جاءت مرَّة بضمان عدم الضلال حين التمسك بذلك: «**قد تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتابُ الله**»(1).

(1) أخرجه مسلم (١٢١٨).

وجاءت مرَّة بالحثِّ على التمسك بالسنة والسير على منهاج المهديين: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذ**[1]»[2].

وجاءت أخرى بالتزكية المطلقة لأهلهما الذين عملوا بهما وعظَّموهما: «**خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[3].

وجاءت أيضًا بالثناء على منهاجهم بالنجاة والنجاح: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[4].

وغيرها من النصوص التي تدل دلالة مباشرة أو ضمنية على أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من التمسك بالدين القويم، والسير على سنة خير المرسلين.

---

(١) أي: الضَّواحِك، وهي التي تَبْدو عند الضَّحك، والأكثر الأشْهَر أنها أقْصى الأسْنان. ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (١/ ٢٣٨)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٣/ ٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وابن حبان (٥)، والحاكم (١/ ٩٧) من حديث العِرْباض بن سارية ﷺ، وصحَّحه ابن عبد البر، وابن تيمية. ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٣٤٨)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٠٩)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٣، ٢٥٣٥) من حديث ابن مسعود وعمران بن حُصين رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسَّنه الترمذي -كما ذكر العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص١١٣٣)، وغيره- وقال البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣): «وثبت عن عبد الله بن عمرو...» فذكره.

وأمّا الأمر الواقعي فأكثر من أن يحصى، والتاريخ شاهد على ذلك؛ فتاريخ الأمة الناصع، ومجدها التليد، وعزها المجيد؛ لم يظهر ويتحقق إلا بتحقيق ذلك، كما في زمن الخلفاء الراشدين، والدول التي قامت بعده التي تمسكت بهذا الأصل العظيم، فكلما تمسكت الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ وقدَّرت سلفها، بقيت وقامت وأثرت، كما وعدها الله بذلك: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥- ٥٦].

وكلما تخلَّت عن ذلك وارتدت عن دينها أو تساهلت، فالنتيجة ضعف النهضة الإسلامية وهوانها، ثم السقوط والتبديل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

صحيح أنه قد تقوم نهضة حضارية منفكة عن جهة الكتاب والسنة غير متبعة لسلف الأمة؛ لكننا لا يمكن أن نعدها نهضة إصلاحية بالمعنى الصحيح للإصلاح؛ إلا بمقدار قربها من الكتاب والسنة، وإلا فالحضارات التي قامت وازدهرت حينًا من الدهر على أسس

عَلمانية أو دينية غير إسلامية كثيرة -وقد تقوم في عالمنا نهضة على غرارها- لكنها ليست إصلاحية ربانية، وليست متكاملة في جميع المجالات، وستبقى ممانعتها في الأمة قوية ما بقيت الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

وفي زمننا الغريب يحزن المرء حين يجد أن كثيرًا من الكُتَّاب والمفكِّرين المسلمين قد أبعد النُّجعَة كثيرًا في مناقشة قضايا أمته ومجتمعه بعيدًا عن المعين الحقيقي للإصلاح؛ زاعمًا الإصلاح أو التجديد.

أيُّ إصلاح يتحدث عنه هؤلاء وفيه مخالفة لطريق الإصلاح الرباني وفق ما جاء في شرع الله، وسنة نبيه ﷺ؟

وأيُّ إصلاح هذا الذي يتجه للدنيا ويترك الدين الذي يفترض أن تسخَّر لإصلاحه الدنيا لا العكس[1]؟

وأيُّ إصلاح هذا الذي يُغْفِل أساس الإصلاح وهو التوحيد الذي بُعثت لأجله الرسل وشُرعت الشرائع والملل، كما في دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) ينظر: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» (ص٢٨).

والمشروع الحقيقي للإصلاح لا بد أن يكون مشروعًا متكاملًا يعبِّر عن أمةٍ هي خير أمة أُخرجت للناس، ويُقدَّم لها قبل غيرها؛ فإنّ هذه الأمة اقترنت خيريتها برسالتها المذكورة كما في آية الخيرية في «سورة آل عمران»: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.

إنَّ هذه الآية تحتاج إلى أن تكون الموضوع الرئيس لأي مشروع إصلاحي؛ حيث إن تمكين المعروف بكل أنواعه من أولى مهام المصلحين، ويأتي في طليعة ذلك: إرساء قواعد أعرف المعروفات، وهو التوحيد، ويقابل هذا: هدم قواعد المنكرات بأنواعها، وفي مقدمتها أساس المنكر وهو الشرك والكفر بالله.

ولا شك أن كل مشروع إصلاحي يتخطَّى هذا الأساس أو يؤجِّله أو يتجاهله، فهو مشروع غير مشروع، ولا تكتفي المنادة بالإصلاح؛ فكم من مُنَادٍ: إنما نحن مصلحون، ولكنهم -من حيث لا يشعرون- مفسدون.

* * *

حَضَارَة بَائِدَة وَعِبَر خَالِدَة

فَيَا لَـكِ مِـنْ دَارٍ تحمَّلَ أَهْلُهَا

أَيَـادِي سَبَا عَنْهَا وَطَالَ انْتِقَالُهَا

ذو الرُّمة

في جنوب الجزيرة العربية وقف التاريخ مدوِّنًا حضارةً كبرى، ومجدًا عريقًا؛ إذ كانت حاضرتُها وكبرى مدنها جنةً من جنان العالم، حتى قيل: إنَّ السائر في أزقتها لو وَضع على رأسه وعاءً لوجده قد مُلِئَ ثمارًا؛ من كثرة الأشجار التي يسير تحتها.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، وحضارةٌ مذهِلةٌ، ورخاء عَزَّ نظيره، ورفاهية قلَّما تكاملت لقوم، وقد نالوا من هذه النعم القِدْح الـمُعَلَّى، وتكامل حظُّهم فيها أوفر حظٍّ ونصيب.

وعلى طول الخط الحدودي بين حاضرتهم وبين منتهى أسفارهم كانت لهم نِعمٌ أخرى تختلف عن غيرهم؛ فلم يكونوا يحملون كغيرهم من الأمم أزوادًا عند ارتحالهم، إذ ألهمهم اللهُ تشييد قرًى ظاهرة تظهر للسائر من بُعد فلا يضلون طريقها، يصبحون في قرية ويبيتون في أختها، قد اكتمل لهم الأمان فصار الليل والنهار في أسفارهم سيَّان، لم يعرفوا قطاع طرق ولا خِيفة تِيهٍ وضياع.

إنَّ حضارةً بهذه المنزلة جديرةٌ بأن تسمّى سورة من سور كتاب ربنا بها، وإنها في قيامها وزوالها عبر ودروس لكل البشر.

إنَّ هذه النِّعم التي اكتملت في «مملكة سبأ» هي مقومات الحضارة والمدنيَّة، وهي نَمُوذجٌ يتكرَّر في كل زمان، فإن كان المؤرِّخون اليوم يعدون سبأ حضارةً بائدةً، فإن عِبرَها ودروسَها خالدة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

سبأ ليست خبرًا من أخبار التاريخ التي تُطوَى إذ التاريخ يعيد نفسه، والمؤمن الواعي يدرك أنَّ في تاريخنا أحداثًا مشابهةً وقصصًا محزنةً، حيث حواضر الأندلس في الغرب: قرطبة وإشبيلية وغَرْناطة وغيرها.

وفي مشرقه يُبصر بعين بصيرته: سمرقند وبخارى وبغداد الرشيد، وسامراء المعتصم، ودمشق الحضارة، وحلب الشهباء وهَلُمَّ جرًّا.

أما مملكة سبأ التي نحن بصددها، ماذا جرى عليهم حين بدّلُوا نعمَ الله وكفروا بها؟ يحدِّثنا القرآن أنهم بدَّلُوا وانحرفوا فبدَّلَ اللهُ

عليهم، فإذا جنانهم الخضراء أصبحت: ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، وإذا القرى الجميلة الظاهرة أصبحت صحراء مصفرَّة، ليس فيها إلا العِضاه[1] والبادية.

وإذا بالرفاهية تنقلب شَظَفًا، وإذا بالاجتماع صار تمزقًا وتشريدًا: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، فغدوا للعرب مثلًا وخبرًا، وفيهم جاء قول ذي الرُّمَّة[2]:

فَيَا لَكِ مِنْ دَارٍ تحمَّلَ أَهْلُهَا
أَيَادِي سَبَا عَنْهَا وَطَالَ انْتِقَالُهَا

إنَّ المتأمِّل في أول إخفاق لهؤلاء القوم في امتحان الرخاء هو إعراضهم عن توحيد الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾، فكان الشرك والإعراض عن التوحيد هو الباب الأعظم الذي فتح عليهم البلاء: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، وقد ترك القرآن تفاصيل هذا البلاء ليُوقف الأمة على مفتاح البلاء الأعظم تاركًا كعادته ما لا يُسمن ولا يُغني من تحليلات الاقتصاديين، وأوهام المؤرِّخين.

---

(١) العِضَاه -يُقرأ في الوصل وفي الوقف بالهاء-: كل شجرة ذات شوك. ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢١١)، و«فتح الباري» (٦/ ٣٥).

(٢) ينظر: «شرح أبيات سيبويه» (٢/ ٢٢٩)، و«لسان العرب» (١١/ ١٩٥)، و«ديوان ذي الرُّمة» (ص٥٠١).

والمتأمِّل أيضًا يجد أن قاصمة الظهر لهذه الحضارة كان في بطر النعمة ومَللها والاستهانة بها: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وصدق مَن قال: «مَن لم يشكر النِّعَمَ فقد تعرَّضَ لزوالها، ومَن شكرها فقد قيَّدها بعقالها»(١).

واجتماع الترف مع كفر النِّعم مُؤذِنٌ بالهلاك والخسران والتدمير: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

تفنى الأمم، وتزول الحضارات حين يخذلُهُمُ اللهُ فيركنهم إلى ضعفهم البشري فيهونون عليه، فتحقُّ عليهم كلمة العذاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وفي قصة سبأ تلك التي صارت أثرًا بعد عين، وحديثًا بعد حضارة، يبصر المؤمن معنى خذلان الله لهم، فانشلَّ تفكيرهم في العواقب، فعبث الشيطان بأحلامهم وعقولهم.

إنَّ مفتاح السِّر لعبر سبأ هو الصبر والشكر؛ ولهذا قال تبارك وتعالى في ختام خبرهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، قال قتادة: «نِعْمَ العبدُ عبدٌ إذا ابْتُلِيَ صَبَر، وإذا أُعْطِيَ شَكَر»(٢).

---

(١) ينظر: «شرح الحكم العطائية» لابن عبَّاد (ص٢٣٠- ٢٣٣)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٣٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٩٨).

وأمَّا الوَشِيجةُ بين الصبر والشكر فيجلِّيها ابنُ جُريجٍ بقوله: «وجدنا أصبرَهم أشكرَهم، وأشكرَهم أصبرَهم»(١).

وذلك أن الشكر حصانة للمؤمن من بطر النعم، وطغيان المِنَن، فلا يحرمه الله التوفيق ولا يقذف به في بُنَيَّات الطريق.

وفي هذه القصة عدة آيات: فمشهد انعكاس حالهم من الرفاهية إلى الشَّظَف آية على تقلُّب الأحوال، وتغير العالم، وآية على صفات الله تعالى من خلق ورزق وإحياء وإماتة.

وفي ذلك آية من عدم الاطمئنان لدوام الحال في الخير والشر، فيكون المؤمن على حذر فلا يبطر عند النعماء، ولا يجزع عند الضرّاء، وهذا أعون ما يكون على ضبط الإنسان، وأبقى لحياة ضميره وإنسانيته، فيكون رؤوفًا بالمنكوبين والمشرَّدين، ويدخر من أيام رخائه صنائع معروف لأيام شدته، **ومَن سرَّه زمن ساءته أزمان.**

ومما يُفاد من هذه القصة: فيما كان من عمران إقليمهم واتساعه أنَّ الأمن من أعظم أُسُسُ العمران والنهضة، وفي تمنِّيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المُفْضِي إلى اختلال الأمور، وذهاب المكتسبات؛ ولذا جاء النهي في الشريعة المباركة عن الدعاء على النفس والولد والمال، وهو من العجلة المذمومة؛ ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

---

(١) أخرجه ابن المنذر في «تفسيره»، كما في «الدر المنثور» (٨/ ٤٩١).

وفي حديث أم سَلَمَةَ رضي الله عنها، قال النبيُّ ﷺ: «**لا تَدْعُوا على أَنْفُسِكُمْ إلا بِخَيْرٍ؛ فإِنَّ المَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ على ما تَقُولُونَ**»[1].

وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتت في الأرض آية عظيمة، فالاستقرار نعمةٌ لا يعرف قدرها إلا المشرَّدون.

كما أنَّ في هذه القصة العظيمة دليلًا على قدرة الرب -جل جلاله- على تحويل النعم إلى نقم، وقلب المنح إلى محن؛ ذلك أنَّ هذه المدينة ملَّت هذه المنح، وأعرضت عن شرع الله، وكفرت بنعم الله، وفي ذلك يُحذِّر المرءُ من نسيان نعم الله عليه أو مللها وعدم شكرها فهو مُؤْذِنٌ بجريان السنن عليه، وسنن الله لا تحابي أحدًا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠).

لَطائِفُ اللّطِيْف

وَهُـوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهْ

وَالـلُّـطْـفُ فِي أَوْصَـافِـهِ نَـوْعَانِ

إدراكُ أَسْرَارِ الْأُمُـــورِ بِخِـبْرَةْ

وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ

ابن القيم رحمه الله

لكل بنيانٍ مفتاح، ومفتاح دعوة الرسل: معرفة الرب تبارك وتعالى، وهو أساس بناء الدين، عليه تبنى مقامات الدين ومراتبه المنيفة، وكيف يستقيم أمر البشرية دون معرفتهم بفاطرهم وبارئهم؟

وصدق العزُّ بن عبد السلام حين قال: «والله لن يصلُوا إلى شيءٍ إلَّا بالله، فكيف يُوصَلُ إلى الله بغير الله؟»(١).

يهتف الصالحون في دعواتهم: يا لطيف، فإذا رحمةٌ خاصةٌ تغشاهم، تُصلِحُ أحوالَهم الظاهرة والباطنة، وبها تندفع عنهم المكاره من الأمور، فاندفاع الشرور عنهم بالأمور الداخلية لطفٌ بالعباد، وبالأمور الخارجية لطفٌ لهم.

ذكر ابن الجوزي أن امرأة من العابدات قامت من أول الليل فقرأت: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]، فباتت تردِّدها حتى أصبحت(٢)، فعلًا كم يغمرنا لطف الله ونحن لا نشعر!

---

(١) ينظر: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ١٨).

(٢) ينظر: «صفة الصفوة» (٢/ ٢٤٧).

لَطِيفٌ يلطف بعبده ووليّه، فيسوق إليه البرَّ والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشرِّ من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصَّل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة(١).

وقد جرت عادة اللَّطيف سبحانه أنه يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشرَّ، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لُطفه يُرِي عبده عزَّته في انتقامه، وكمال اقتداره، ثم يُظهر لُطفه بعد أن أشرف العبد على اليأس والهلاك.

ومن لَطِيف لُطفه بعبده إذ يؤهله للمقامات السامية التي لا تُدرك إلا بعظائم الأسباب وعُليا العزائم أن يقدِّر له في ابتداء أمره بعض الأسباب المحتملة المناسبة لما يؤهل له لتتمرَّن نفسه وتصير له مَلَكَةً من جنس ذلك الأمر.

وكذلك يُذيق عبده حلاوة بعض الطاعات، فينجذب ويرغب وتصير له مَلَكَةٌ قويَّةٌ بعد ذلك على طاعات أعلى وأجل لم تكن حاصلةً بتلك الإرادة السابقة حتى وصل إلى هذه الإرادة والرغبة التامة(٢).

---

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٨٧٧).

(٢) ينظر: «المواهب الربانية» (ص١٢١-١٢٢).

وفي نفحات اسم الله اللَّطيف وروحانياته جلاءٌ للحزن عن قلب المؤمن، ووقود له على المضي قُدُمًا في الطريق بثبات.

والمؤمن حين يعيشُ في ظلال اسم الله «اللَّطيف» فإنه يتحرَّى اللُّطف مع خلق الله، فتجده سهلًا ليِّنًا يألف ويُؤلف: ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُم﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿أَذِلَّة عَلَى الْمُؤْمِنِين﴾ [المائدة: ٥٤]، متأسّيًا بنبيِّه ﷺ الذي وصفته زوجه عائشة رضي الله عنها بأنه كان لطيفًا بها حين تمرض رضي الله عنها، كما أخرجه البخاري[1].

إنَّ فيما مضى غَرْفة من بحر فقه اسم الله «اللَّطيف»، وحَرِيٌّ لمَن ينشد لُطف الله أن يتفقَّه في اسم الله «اللَّطيف»، مستحضرًا أن فقه أسماء الله الحسنى هو الفقه الأكبر.

لا تنفكُّ لحظة من لحظاتك عن لُطف ربك، فتلمّسها ولا تكن غافلًا، إن أقبلت مصيبة فابحث عن لُطف ربك ففي بطن المحنة تكون المنحة، وإن كانت السرَّاء فذاك لُطف ظاهر، وإنما يُؤتى الناس من غفلتهم بالنعمة عن تلمس لُطف الله بهم.

فرارًا من لفحات الحياة، ولهيب مصابها وفواجع دهرها، يرفع المؤمن يديه: يا لَطِيف! فإذا باستشعاره لمعناها يتبدَّد الأَسَى ويترمَّم القلب، ثم يعود أقوى ما كان وأجلد ما يكون.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٦١).

وحين تتفقَّه في باب من أبواب الطاعة فلا تغفل عن لُطف الله بالعباد في تشريعه لهم، وإن أردت أن تحلو لك الحياة فاعبد ربك باسمه «اللَّطيف»، واهتف به دومًا بمُرِّ الحياة وحلوها، مستجيبًا لنداء اللَّطيف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

اللهمَّ الطف بنا في تيسير كل عسير، فإن تيسير كل عسير عليك يسير.

* * *

القُلُوبُ الأَرْبَعَة

(سورة الحج فيها ذكر القلوب الأربعة:
الأعمى، والمريض، والقاسي، والمخبت
الحي المطمئن إلى الله)

ابن تيمية رحمه الله

«سورة الحج فيها مكي ومدني، وليلي ونهاري، وسفري وحضري، وشتائي وصيفي؛ وتضمنت منازل المسير إلى الله بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها.

ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى، والمريض، والقاسي، والمخبت الحي المطمئن إلى الله.

وفيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بيِّن لمَن تدبره، وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلِّها، توحيدًا وصلاة وزكاة وحجًّا وصيامًا، قد تضمن ذلك كله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۩﴾ [الحج: ٧٧] فيدخل في قوله: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ كل واجب ومستحب؛ فخصَّص في هذه الآية وعمَّم ثم قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيرًا إلا جمعته ولا شرًّا إلا نفته».

انتهى بنصِّه من «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»[1] رحمه الله تعالى.

صحيح أن «سورة الحج» عجيبة جدًّا، وهي سورةٌ سميت بركن من أركان الإسلام، فهي تؤصِّل للعقيدة، وتؤسِّس للتوحيد، وتدعو إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتنافح عن دين الرسل، وهي من أعاجيب السور، كما ذكره ابن سلامة البغدادي، وأبو بكر الغزنوي، وابن حزم الأندلسي، وابن تيمية الحراني[2].

ومن عجائب هذه السورة الكريمة أنه اجتمع فيها سجودان، وهذا لم يحدث في سورة أخرى، بل قال بعض العلماء: «إن السجود الثاني فيها هو آخر سجود نزل في القرآن الكريم»[3].

لكن أكثر ما شدَّني من نصِّ ابن تيمية السابق هو قوله: «ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى، والمريض، والقاسي، والمخبت الحي المطمئن إلى الله».

أَسَرني هذا النص، وكنتُ أقول: فعلًا كم نحن بحاجة إلى التعرف إلى أحوال قلوبنا، ومعالجتها بمواعظ القرآن، وأنوار الذكر، فَلَو

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله بن سلامة البغدادي (ص١٢٦)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١)، و«مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٦٦).

(٣) ينظر: «بغية السائل من أوابد المسائل» (ص٥٤٨).

بحثت في أودية الدنيا كلِّها، وبحار الشرق والغرب لدواء قلبك، فلن تجد أنجع من مواعظ القرآن، وأنوار الرسالة.

والآيات التي عناها الإمام ابن تيمية هي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، هذا في القلب الأعمى، وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣ - ٥٤]، في القلب المريض والقاسي، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥]، في القلب المخبت الحي المطمئن إلى الله.

ففتِّش عن منازل قلبك، وقناديل إيمانك، من خلال تدبر «سورة الحج» العظيمة، ولو طَهُرَ قلبي وقلبك ما شبعا من كلام الله جلَّ في عُلاه.

* * *

نَاشِئَةَ اللَّيْلِ

(كابدتُ الصلاةَ عشرين سنة، وتنعَّمتُ

بها عشرين سنة)

ثابت البُناني رحمه الله

«ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل»[1]، ما كان للإمام التابعي الجليل ثابت البُناني[2] رحمه الله تعالى، أن يقول هذا إلا بعدما زكت نفسه، وصلح قلبه، وطابت حياته، بعدما تعرض لنفحات الله في أسحار الليالي، وذاق لذة مناجاته في الأوقات الخوالي، فسبحان مَن تفضَّل على عباده بهذا النعيم قبل لقائه، وبصَّرهم بطريق السعادة، ورزقهم لذة هذه العبادة، فهم بليلهم ألذ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا تلك السجدات في جنح الليل ما أحبوا البقاء في الدنيا[3].

قــومٌ إذا جــنَّ الــظـلامُ عليهم

بـاتـوا هنالك سـجّـدًا وقيامًا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (١٥٣)، وينظر: «صفة الصفوة» (٢/ ١٥٥).

(٢) حدَّث عن جمع من الصحابة من أئمة العلم والعمل رضي الله عنهم، قال أنس ﷺ: «إن للخير أهلًا، وإن ثابتًا هذا من مفاتيح الخير»، وُلد في خلافة معاوية، ومات رحمه الله سنة سبع وعشرين ومائة، وهو ابن ست وثمانين سنة. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢١).

(٣) قاله أبو سليمان الدَّاراني رحمه الله، كما في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٧٥).

خمصُ البطونِ من التعفُّف ضُمَّرًا

لا يعرفون سوى الحلال طعامًا(١)

فنعمة قيام المسلم بالليل هي من توفيق الله له، وإعانته على طاعته، والتقرب إليه بعبادته، فهي شعار الصالحين، ومن سمات عباد الله المتقين، ومن الأسباب العظيمة الموجبة لدخول الجنة بعد رحمة أرحم الراحمين.

وإن الناظر في النصوص الشرعية عن حقيقة هذه العبادة تتجلَّى له مقاصدها في عدة إشراقات قرآنية، وفضائل نبوية، **تظهر أولًا في كتاب الله** ﷻ بكون التهجد بالصلاة هو الصلة الدائمة بالله المؤدية للمقام المحمود الذي وعده الله نبيه محمدًا ﷺ، فما أحوج الآخرين من أمته للاقتداء به لينالوا علو المقام ورفعة الدرجات، ففي «سورة الإسراء»: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وفي آيات أخرى تبرز عدة أوامر إلهية لرسولنا الكريم ﷺ للقيام بهذه العبادة الجليلة، ففي «سورة المزمل» نداء للرسول ﷺ بترك التزمل -وهو التغطِّي بالليل- والنهوض إلى القيام بالليل والعبادة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٧١).

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤][(١)]، فكان خير مثال في ذلك بأبي هو وأمي ﷺ.

وفي آية المزمل الأخرى بيَّنت أن القيام بالليل أجمع للخاطر وأجدر لفقه القرآن: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

وفي «سورة الشرح» خطاب له ﷺ بعدم القيام إلا بعد الفراغ من أمور الدنيا وأشغالها؛ لكي يكون نشيطًا فارغ البال مخلصًا الرغبة والنية لله عَجَّلَ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨][(٣)].

وفي «سورة آل عمران» ورد الثناء على طائفة من أهل الكتاب بسبب هذا الفعل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وفي «سورة الذاريات» يبرز في سمات عباد الله المتقين التي استحقوا بها جنة الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٤)، والبيهقي (٢/ ٧٠٤)، وينظر: «صحيح أبي داود» (٥/ ٤٨). قال الأزهري: «ناشئة الليل: قيام الليل». وقال الحسن البصري: «كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة من الليل». ينظر: «شرح السنة» (٤/ ٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٣).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٣).

وفي إشراقة أخرى في «سورة الزمر» يأتي تفضيل القانت الخاشع على غيره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَايِمًا﴾ [الزمر: ٩].

ويتضح الأمر ثانيًا في الأحاديث النبوية، حيث جاء الحث عليها في صورة بهية وجزاء وافر في عدة أحاديث كريمة من رسولنا الكريم ﷺ، تارة في الفضل والشفاعة لصاحب هذا القيام: «**فيقول القرآنُ: منعته النومَ بالليل**»[1]، ومرة في حثٍّ وتربية لشباب الأمة على ذلك: «**نِعم الرجلُ عبدُ الله، لو كان يصلِّي من الليل**»[2]، وأخرى في حثٍّ صريح للأمة بكونه أفضل الصلاة بعد الفريضة الصلاة في جوف الليل[3].

وفي حديث آخر بيَّن ﷺ أنه به تكون الغبطة الحقيقية: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ، فهو يقومُ به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه اللهُ مالًا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[4].

وفي حثٍّ آخر يبيِّن ﷺ أنه اقتداء وقربة وتكفير ومنهاة عن الإثم، كما في حديث أبي أُمامة رضي الله عنه مرفوعًا: «**عليكم بقيام الليل، فإنه دَأَبُ**

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٢٦)، والحاكم (١/ ٥٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحَّحه الحاكم، والسيوطي في «الجامع الصغير» (٥١٨٥- «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعاني).

(٢) قال ذلك لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا. أخرجه البخاري (١١٢١، ١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (١١٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الصالحينَ قبلكم، وهو قُرْبَةٌ إلى ربكم، ومَكْفَرَةٌ للسيئات، ومَنْهاةٌ للإثم»[1].

ولقد كان خيرة السلف يحرصون على ذلك حتى وهم في سفرهم وترحالهم؛ قال ابن أبي مُليكة: «سافرت مع ابن عباس رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة، فكان يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا، ثم يبكي حتى تسمع له نشيجًا»[2].

وفي بيان عذب منه ﷺ بيّن لأمته أنَّ فاعل ذلك محبوب عند الله، فبيَّن أن اللهَ يُحبُّ ثَلَاثَةً، وذكر منهم: «**رَجُلٌ سَافَرَ مَعَ قَوْمٍ فَارْتَحَلُوا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْكَرَى**[3] **أَوِ النُّعَاسُ، فَنَزَلُوا، فَضَرَبُوا بِرُءُوسِهِمْ، ثُمَّ قَامَ، فَتَطَهَّرَ، وَصَلَّى رَغْبَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ**»[4].

ولقد كانوا مع ذلك يحرصون أيضًا على أمر أهلهم بالصلاة والقيام، كما كان يفعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حيث كان يصلِّي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩م)، وابن خزيمة (١١٣٥)، والبغوي (٩٢٢)، وحسَّنه البغوي، وصحَّحه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢/ ١١٧ - ١١٨).
(٢) ينظر: «مختصر قيام الليل» لمحمد بن نصر المروزي (ص١٣١).
(٣) الكَرَى: النعاس والنوم. ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٦٩).
(٤) أخرجه الطيالسي (٤٧٠)، وأحمد (٢١٥٣٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٣٧)، والحاكم (٢/ ٨٨) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وصحَّحه الحاكم.

للصلاة، يقول لهم: «الصلاة الصلاة»، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢][(١)].

وكانوا يتعاهدون مع نسائهم وخوادمهم حتى مع وجود ما يشغلهم من أضياف ونحوه، ونعم البيت القرآني الذي يتربَّى على هذا، فعن أبي عثمان النَّهْدي قال: «تضيَّفتُ أبا هريرة ﷺ سبعًا، فكان هو وامرأتُه وخادمُه يَعتَقِبون الليلَ أثلاثًا، يصلِّي هذا ثم يوقظ هذا، ويصلِّي هذا ثم يوقظ هذا»[(٢)].

وإن من الأمور المهمة في هذا الموضوع أن يحرص التقي العارف على **مجاهدة نفسه**، فذلك من أعظم الوسائل المعينة على قيام الليل، قال ثابت البُناني: «كابدتُ الصلاةَ عشرين سنة، وتنعَّمتُ بها عشرين سنة»[(٣)]. وقال إبراهيم بن شَمَّاس: «كنتُ أعرفُ أحمد بن حنبل وهو غلام وهو يُحْيِي الليل»[(٤)].

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ١٦٢)، وعبد الرزاق (٤٧٤٣)، وأبو داود في «الزهد» (٧٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٢٢)، وينظر: «جامع الأصول» (٦/ ٦٨).
(٢) أخرجه أحمد (٨٦٣٣)، والبخاري (٥٤٤١).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٢١).
(٤) ينظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٣٨٥)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٢٨).

وكان الإمام البخاري يقوم فيتهجد من الليل، فيختم عند السَّحَر في كل ثلاث ليالٍ[1].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية في ليله منفردًا عن الناس، خاليًا بربه، ضارعًا مواظبًا على تلاوة القرآن، مكررًا أنواع التعبدات[2].

إنَّ هذه الفضائل والتأكيدات من الشارع الحكيم جعلت علماء الشريعة يبحثون عن سر هذا الوقت الذي حث الشارع على إحيائه بالقرآن، فنجد أن النووي يشرح ذلك بقوله: «إنما رجحت صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرِّياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلًا...»[3].

ويشاركه ابن حجر العسقلاني بقوله: «لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية»[4].

ويوافقهم ابن كثير بقوله: «قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ ولهذا قال: ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة

---

(١) ينظر: «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (٢/ ٢٥٤).
(٢) ينظر: «العقود الدُّرِّية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٧٥٨).
(٣) ينظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي (ص٦٤).
(٤) ينظر: «فتح الباري» (٩/ ٤٥).

وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش»[1].

وهنا تأتي مسألة مهمة، وهي مسألة: أيما أفضل إذا قام من الليل: الصلاة أم القراءة؟

وأجاب عنها شيخ الإسلام ابن تيمية بما يأتي: «بل الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة، نص على ذلك أئمة العلماء، وقد قال: «**استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظُ على الوضوء إلا مؤمنٌ**»[2]. لكن مَن حصل له نشاط وتدبر وفهم للقراءة دون الصلاة فالأفضل في حقه ما كان أنفع له»[3].

ومن خلال ما سبق يتبين أن المداومة على القراءة في التهجد فيها خيرات عظيمة، وهي معينة جدًّا على التدبر وتأثر القلب وخشوعه، فلا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهِّل حفظه وييسِّر فهمه إلا القيام به

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٢).

(٢) يشير إلى حديث ثوبان ﷺ الذي أخرجه أحمد (٢٢٣٧٨)، وابن ماجه (٢٧٧)، وابن حبان (١٠٣٧)، والحاكم (١/ ١٣٠)، والبيهقي (١/ ٤٥٧)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٥).

(٣) ينظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٢/ ٤١).

في جوف الليل، كما يقوله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[1]، ويقول السَّرِي السَّقَطي: «رأيت الفوائد ترد في ظلام الليل»[2].

إن التقرب إلى الله ﷻ بهذه العبادة الجليلة هو زاد المتقين، وشعار المخلصين، التقرب إليه ذكرًا وعبادةً ودعاءً وتسبيحًا؛ حيث يلتقي العبد بربه في خلوة ونجاء، وفي تطلع وأنس، تفيض منه الراحة على التعب والمشاق الدنيوية، والهموم الحياتية، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة.

حيث تنفض الروح عنها شواغلَ الدنيا وعلائقَها، وترى عظمة التكليف، وضخامة الأمانة، فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من متاعب الحياة! فالله ﷻ الرحيم، كلف عبده الدعوة، ونزل عليه (القرآن) الزاد الصالح لهذه الرحلة المضنية في هذه الحياة.

نعم هو زاد لأصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل، إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق من الأتقياء والمصلحين والدعاة إلى الله في هذا الزمن الصعب؛ فالتعبد لله ﷻ في هذه العبادة الليلية؛ نجاح وفلاح للدعوات والمشاريع النهارية.

---

(١) ينظر: تتمة «أضواء البيان» (٨/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» (ص٩٠).

وبعد؛ ففي النفس حياء وخجل، وخوف ووجل، فالتقصير حاصل، والفعل دون ذلك بمراحل، والله المستعان، ولكن هو التبليغ ولو بآية، والتذكير إن نفعت الذِّكْرى.

* * *

كُسُوفُ القَلْبِ

(إن الرجلَ ليعمل الحسنة فتكون نورًا في قلبه، وقوةً في بدنه، وإن الرجل ليعمل السيئة فتكون ظلمة في قلبه، ووهنًا في بدنه)

الحسن البصري رحمه الله

لم يَبرُدْ حرُّ كبده من رحيل ابنِه، ولم ينجبر كسر قلبه على فراقِ وحيدِه، ولم يلتئم فؤادُه من وداع صفيه؛ حتى خرجَ إلى محرابه فزعًا، يخشى أن تكون الساعةَ حتى نسيَ من شدةِ الفزعِ أن يأخذَ رداءَه فأخذَ درعًا مكانَه، فأدركَه أهلُه بردائه فصلى صلاةً لم يعهدْها أصحابُه من قبل، وكانتْ لطولِهَا وخشوعِها محلَّ مروياتِ أصحابه، فرواها عنهُ أكثر من عشرينَ صحابيًّا رغمَ أنه ما صلاها في حياته إلا مرةً واحدة، كما رجحَه ابنُ تيميةَ وآخرين[1].

إنّه رسولُ العالمين ﷺ يومَ كسفَتِ الشمسُ في عهدِه الزاهر، فسنَّ للناسِ صلاةً خاصةً بها، وفنَّدَ فيها قالةَ الناس: **كسفتْ لموتِ إبراهيم ابنِ رسولِ الله.**

وَمَا أدراكَ مَا هذهِ الصلاة؟ كانتْ آيةً في الخشوعِ والرهبة، تقولُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضي الله عنهما -كما في «صحيح مسلم»-:

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٥٦)، و«زاد المعاد» (١/ ٤٣٩).

«لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا أَتَى لَمْ يَشْعُرْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكَعَ، مَا حَدَّثَ أَنَّهُ رَكَعَ، مِنْ طُولِ الْقِيَامِ»(١).

وَمَا أدراكَ مَا طولُ هذهِ الصلاةِ؟ يقولُ أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه: «فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ»(٢).

ويقولُ جابرُ رضي الله عنه -كما في «صحيح مسلم»-: «لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلَّا الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَرُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ سُجُودِهِ»(٣).

وما أدراكَ ما عجائبُ هذه الصلاةِ؟ حدَّثَ جابرٌ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا»**(٤).

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٩٠٦).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٠٥٩).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٩٠٤).

(٤) أخرجه مسلم (٩٠٤)، وفي البخاري (٧٤٥) نحوه من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

وما أدراكَ ما وعظُ هذه الصلاة ونصحُها؟

في «الصحيحين» أنّه ﷺ قال: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّد، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»(١).

تلكمْ رشفاتٌ من صلاته ﷺ لما خسفت الشمسُ في عهدِه، وكسوفُ الشمس وخسوفُ القمر آياتٌ ونذرٌ لنا جميعًا، فإنه عليه الصلاةُ والسلامُ حدَّثَ فصدق وقال: «**إِنَّ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي يُرْسِلُ اللهُ لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِه، وَلَكِنَّ اللهَ يُرْسِلُهَا، يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا، فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ، وَدُعَائِهِ، وَاسْتِغْفَارِهِ**»(٢).

آياتٌ تلوَ آيات، وكسوفٌ يتبعُه خسوف، وهزاتٌ وزلازلُ وحروبٌ ودمار، والكونُ كلُّه يرتعدُ من حولنا وكأنَّ شيئًا لم يحدث، وكأنَّ الأمرَ لا يعدو كونَه حدثًا فلكيًّا، أو مشهداً يستحقُّ التصويرَ والمتابعةَ عندَ بعضهم، وهكذا حينَ ينكسفُ القلبُ فلا مجالَ ليتعظَ بآيات الله ونُذُرِه ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ولئنْ جعل اللهُ الشمسَ ضياءً والقمرَ نورًا، كما في قولِه تَعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢) من حديث أبي موسى ﵁.

فقدْ جعلَ للقلوب نورًا وضياء، فإذا أزهرَ هذا الضياءُ في القلب كان -كما قال أبيٌّ بنُ كعب رضي الله عنه-: «يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ النُّور، فَكَلَامُهُ نُورٌ، وَعَمَلُهُ نُورٌ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ، وَمَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ»(١).

وكما يُمحَقُ ضوءُ الشمسِ فتنكسفُ ويخبتُ نورُ القمرِ فينخسف، فكذلكَ القلوبُ على أحوالٍ أربعَ، كما رُوِيَ: أنّ القلوبَ أربعةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ، ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ(٢).

فاعرضْ قلبَك على هذا الأثر لتعلمَ من أيِّ هذه القلوب قلبُك الذي في جوفك!

وكما لا يختلفُ عاقلانِ بأن للقلبِ أمراضًا فكذلكَ لا يتمارَى اثنانِ أن لكسوف الشمس أسبابًا، لكنْ عندما يجتمعُ كسوفُ الشمس مع كسوفِ القلب عندها تخشى من الظلم والغفلة التي صوَّرها القرآنُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٣).
(٢) أخرجه أحمد (١١١٢٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٥١٥٨)، و«تكميل النفع بما لم يثبت به وقف ولا رفع» لمحمد عمرو عبد اللطيف (ص٨٧).

العظيمُ للقوم الغابرين: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

إذا كادتِ الدوابُّ أنْ تهلكَ بذنوبِ بني آدمَ، كما قالَ السلفُ رحمَهم اللهُ تعالى في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(١)، فعلامَ يُنكرُ أنَّ هذه الآيات من الخسوف والكسوف بسببِ ما أحدثَه الناسُ منْ ذنوب؟ ما بالُ أقوامٍ يضجرونَ ويتجاهلونَ الأسباب الشرعية للكسوف والخسوف؟ أليسَ هذا من انكساف القلب وانطماسه؟

إن تطورَ العلومِ التجريبيةِ لا يعارضُ قولَه تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]. قال الحسنُ البصريُّ رحمَه الله: «أفسدَهُم اللهُ بذنوبِهم في بحرِ الأرضِ وبرِّها، بأعمالِهم الخبيثة»(٢)، وإنّما أذاقَنا الشيءَ اليسيرَ من أعمالِنا، ولوْ أذاقَنا كلَّ أعمالِنا لمَا تَرَكَ على ظهرِها منْ دابة.

إنَّ هذه المعاصي كما تفسدُ الأرض، وتحجبُ البركاتِ والأرزاق، بلْ وتبيدُ الأممَ، فكذلك تذهبُ بنورِ القلبِ، كما قال الحسن رحمه

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٠٢ - ٤٠٣)، و«التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٤٢٩)، و«أضواء البيان» (٢/ ٣٩١).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٠٥)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥١١).

الله: «إن الرجلَ ليعمل الحسنة فتكون نورًا في قلبه، وقوة في بدنه، وإن الرجل ليعمل السيئة فتكون ظلمة في قلبه، ووهنًا في بدنه»(١).

فيا لله كيفَ تُظلَمُ عضلةٌ صغيرةٌ بسبب معاصي فردٍ واحد، ولا يُظلمُ جرمٌ كبيرٌ بسبب معاصي مجموعةٍ من الناس؟

رجفت الكوفة على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقامَ في الناسِ مذكِّرًا قائلًا: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَاعْتِبُوهُ(٢)»، يقول قتادة: «وَإِنَّ اللهَ يُخَوِّفُ النَّاسَ بِمَا شَاءَ مِنْ آيَةٍ لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ، أَوْ يَذْكُرُونَ، أَوْ يَرْجِعُونَ»(٣).

وفي عهد عمر ﷺ زلزلت الأرض حَتَّى اصْطَفَقَت(٤) السُّرَرُ، فخطب عمرُ ﷺ الناسَ فقال: «أَحْدَثْتُمْ، لَقَدْ عَجِلْتُمْ، لَئِنْ عَادَتْ لَأَخْرُجَنَّ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَيْكُمْ»(٥).

إنَّ لانجلاء كسوف الشمس وخسوف القمر طاعاتٍ دلَّ عليها النبيُّ ﷺ أمّتَه، وقدْ أجملَها قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٩٣،١٩٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٢٦).

(٢) أي: أزيلوا عتابه. ينظر: «مختار الصحاح» (ص١٩٩)، و«تاج العروس» (٣/ ٣١٠-٣١١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٦٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٩١).

(٤) أي: اضطربت وتحركت. ينظر: «المعجم الوسيط» (١/ ٥١٧).

(٥) أخرجه نُعيم بن حمَّاد في «الفتن» (٢/ ٦٢٠)، وابن أبي شيبة (٨٣٣٥)، والبيهقي (٣/ ٤٧٦).

قال قتادة رحمه الله: «لعلَّ راجعًا أن يرجعَ، لعلَّ تائبًا أن يتوبَ، لعلَّ مُسْتَعْتِبًا أن يَسْتَعْتِبَ»[1]!

وهكذا البرءُ منْ كسوف القلب بالتوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومما يجلي هذه الكُرْبةُ الفزعَ إلى الله بالصلاة، كما دلَّ عليه النبيُّ ﷺ أمتَه «**فإذا رأيتم شيئًا من ذلك، فافزعُوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره**».

وما يجلِّي كسوفَ الشمسِ فإنه كذلكَ يجلِّي كسوفَ القلب، وأعظمُ الذكر هو القرآنُ النورُ المبين: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٤-١٦].

* * *

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٥١٨).

سَاعَات نَبَوِيّة

إمـامٌ لهمْ يهديهمُ الحــقَّ جاهدًا
معلِّمُ صدقٍ إنْ يطيعوهُ يسعدوا
عَفُوٌّ عن الـزّلّاتِ يَقبلُ عُذْرَهمْ
وإنْ يحسنوا فــاللهُ بالخيرِ أجودُ

حسان بن ثابت رضي الله عنه

أحبَّهُ الجبلُ قبل السهل، ورفعَ اللهُ ذكرَه، وباركَ اللهُ لهُ ولأهل بيتِه وأهل مدينته، وفي غضونِ عقدٍ من الزمنِ حدثَ على يديهِ النقلةُ الكبرى في مسيرة البشرية، فأخرجَهُمُ اللهُ به منَ الظلماتِ إلى النور، ومنَ الجورِ إلى العدل، ومن الضيقِ إلى السعة. كانت أيامُه وعاءً لهذهِ المهمةِ الكبرى، فلمْ يكنْ يومُه مجردَ ورقةٍ تُطْوَى، أو وقتٍ يمضيْ، بلْ كانتِ الإنجازاتُ تتدافعُ في ساعاتِ هذا اليوم، فلمْ تكنْ هناكَ دقيقةٌ منْ هذا اليومِ المباركِ إلا وهيَ مغتنَمَة، فالاغتنامُ والبركةُ هيَ شعارُ اليوم في حياة هذا النبي العظيم ﷺ.

ولك أنْ تتخيلَ أخي المبارك لحظات هذا اليوم ومحطاتِه في سيرتِه عليهِ الصلاةُ والسلام، فمعَ خيوطِ الفجرِ كانَ أذانُ بلالَ يصدحُ في أرجاء معقل الإيمان، فيستيقظُ ﷺ فيصلي بالناسِ صلاةَ الفجر.

وما أجملَ نورَ الصباحِ في طيبة حينَ يلتقي بنورِ وجهه ﷺ، ليتَ شعري كيفَ شعورُ الصحابةِ وهيَ تشاهدُ هذه الأنوار الزاكية وهي تجتمع؟ يصفُه شاعرُهم فيقول[1]:

---

(١) ينظر: «ديوان كعب بن زهير» (ص٦٧).

إِنَّ الـرَسـولَ لَنورٌ يُستَضاءُ بِهِ
مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللهِ مَسلولُ!

هذا الصباحُ كالبستانِ المثمر، الغَنَّاءِ بأقواتِ الروحِ وغذاءِ القلب، فتارةً يتحفُهم بوعظِهِ ﷺ، كما في حديثِ العِرْباضِ بن سارية رضي الله عنه المشهور: «صلَّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الفجر، ثم وعظَنا موعظةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ منها العيونُ[1]، ووَجِلَتْ منها القلوبُ[2]...»[3].

وتارةً يغرفُ لهمْ مِنْ بحرِ أبوتِه متفقِّدًا أحوالَهم وكروبَهم: «**هلْ فيكمْ مريضٌ أعودُه؟**». فإن قالوا: لا، قال: «**فهلْ فيكمْ جنازةٌ أتبعُها؟**». فإن قالوا: لا، قال: «**مَنْ رأى منكمْ رؤيا يقصُّها علينا؟**»[4].

وربّمَا كانَ هذا الصباحُ بلونِ المرحِ يضحكونَ فيهِ منْ جهلِهم في الجاهليةِ، فيضحكون ويتبسمُ لهمْ ﷺ[5].

---

(١) أي: جرى دمعها. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ١٠٩).
(٢) أي: فزعت. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٥٧).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه بطوله ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وانفرد به، وهو وإن كان ضعيف الإسناد، إلّا أن مجمل حياة النبي ﷺ يدل على هذه الحال. أما قوله ﷺ: «مَنْ رأى منكمْ رؤيا يَقصُّها علينا» فمخرج في «صحيح البخاري» (١٣٨٦، ٧٠٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنهما.
(٥) ينظر: «صحيح مسلم» (٦٧٠، ٢٣٢٢).

ثمَّ بعدَها يقومُ ﷺ إلى حجراتِ نسائِه يطوفُ عليهن، فيفيضُ على أهلِ بيتِه منْ عبقِ الحنانِ والاهتمامِ كما أفاضَ على أهلِ مسجدِه:

يا مَن لَهُ الأَخلاقُ ما تَهوى العُلا

مِنها وَمـا يَـتَـعَـشَّـقُ الـكُـبَراءُ

زانَتكَ في الخُلُقِ العَظيمِ شَمائِلٌ

يُغرى بِهِـنَّ وَيـولَـعُ الـكُـرَمـاءُ[1]

في شرقيِّ المسجدِ في الروضةِ الشريفة، كانَ ﷺ يعقدُ مجلسَه، فكانَ مفتوحًا لكل الناس، لمْ يعرفْ حرسًا ولا عسكرًا، وفي هذا المجلسِ سطَّر الصحابة كثيرًا منْ ذكرياتِهم رضوان الله عليهمْ معه، ورَوَوا عنهُ العلمَ وما كانَ هذَا المجلسُ مقيدًا بسجلاتِ الحضورِ والغياب، بلْ كانَ ﷺ مقدرًا لهُمْ ظروفَ حياتِهم وأعمالِهم وحرفِهم.

في دقائقِ اليومِ النبويِّ ليسَ للتكلفِ والتصنعِ والرتابةِ مكان، فالوعظُ ممزوجٌ بالعلم، والعلمُ ممزوجٌ بالمرح، فلا يكلُ الجالسُ ولا يملُّ الصاحب:

إمـامٌ لهـمْ يهـديهـمُ الحـقَّ جاهدًا

معلِّمُ صدقٍ إنْ يطيعوهُ يسعدوا

---

(١) ينظر: «الشوقيات» (١/ ٣٥).

عَفُوٌّ عن الـزّلاتِ يَقبلُ عُذْرَهمْ

وإنْ يحسنوا فاللهُ بالخيرِ أجـودُ[1]

نعم، كانَ هذا المجلسُ علميًّا منَ الطرازِ الرفيعِ الذي لا يسمحُ الزمانُ بمثلِه، فالتعليمُ لَمْ يكنْ تلقينًا مملًّا بل ترى فيه السبقَ النبويَّ لجميعِ نظرياتِ التربيةِ والتعليم، فتنوعُ وسائلِ التعليمِ هو استراتيجيةُ هذا المجلس شحذًا لذهنِ المتعلم، وأساليب تشويقه: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ»**[2].

ومنْ عجائبِ هذا المجلسِ العلميِّ تفاوتُ أعمارِ المتلقين، وقدْ كانَ لبُّ هذا المجلسِ: الحوارُ المؤدب، ومكانُه المسجد، ويكادُ شطرُ اليومِ النبويِّ كلّه في رحابِ المسجدِ النبويِّ الجميل.

وفي هذهِ الجامعةِ النبويةِ لَمْ يكنْ شأنُ الأخلاقِ أقلَّ حظًّا منْ شأنِ المعرفة، فالأخلاقُ مقررٌ يستوفي كلَّ الساعات، فقدْ كانَ ﷺ يجلسُ

---

(١) ينظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦، ٤٧٤)، ومسلم (٢١٧٦) من حديث أبي واقد اللَّيثي رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والناسُ معه، إذ أقبلَ نَفَرٌ ثلاثةٌ، فأقبلَ اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحدٌ، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدُهما فرأى فُرْجةً في الحَلْقة فجلسَ فيها، وأما الآخرُ فجلسَ خلفهم، وأما الثالثُ فأدبرَ ذاهبًا، فلما فرغ رسولُ الله ﷺ قال... فذكره.

مَعَ أصحابِه ولَمْ يتميزْ عنهُمْ بشعار، يأتي الغريبُ فلا يميزُه كعادةِ الزعماءِ والملوك، فيسأل: أَيُّكُمْ ابنُ عبد المطلب؟ فيجيبونه: هذا الأبيضُ المتكئ(١)! جالسٌ بينهمْ بكلِّ تواضعٍ وهيبةٍ وخشوع.

وقدْ كانتْ هذهِ الجامعةُ مفتوحةً لكلِّ الناسِ، فكانَ يُؤتَى بصبيانِ المدينةِ فيدعُو لهمْ ويحنّكُهُمْ ويبرِّكُ عليهِم(٢)، وفيهِ إشارةٌ نبويةٌ عظيمةٌ بحقوقِ الأطفال.

ولَمْ يكنْ يومُه ﷺ خليًّا منْ زياراتٍ للأصحاب وصلاتٍ للأرحام، ولا صفرًا منْ عياداتِ المرضى، بلْ ولَا منَ المشيِ في الأسواقِ والطرقاتِ كعادةِ البشر، بل يزورُ مريضًا، ويسعَى في قضاءِ حاجة، ويمشي في السوق، ويصلُ الأرحام، ويكرمُ الأضياف.

وحُقَّ لهذا الجسد المبارك بعد هذه المهام الكبرى والوظائفِ العظمى أنْ يرتاح في المنزل، وكانتْ هذه الساعةُ هي حظَّ أهله فيه، وربَّمَا انقلبَ مجلسًا خاصًّا فكانَ في بعضِ الأحايينِ يفتي بالمسائلِ الخاصةِ كمسائلِ النساءِ بمحضرٍ منْ أمهاتِ المؤمنين، وكانَ أيضًا وقتًا خاصًّا لخاصة أصحابه في الأمور العارضة لهم، فكان يتعهّدهم بحنوِّه، ويشملهم بنسائم لطفه، وأعطاف رحمته.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٢).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٩٠٩، ٥٤٧٠، ٥٤٦٧، ٦١٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤-٢١٤٦).

وَإِذا رَحِمــتَ فَـأَنـتَ أُمٌّ أَو أَبٌ

هَــذانِ في الدُنيا هُما الـرُحَمـاءُ[1]!

وكانَ ﷺ يستفتحُ مساءَه بصلاةِ الظهر؛ ولأنّ هذا الوقتَ هو محلُ اجتماعِ الناسِ بعدَ قيلولتِهم وراحتِهم، وصفاءِ أذهانِهم، كانَ ﷺ يخصصُها للخطبِ والتذكيرِ في الأمورِ العارضة، كما في خطبتِه عندمَا تمعَّرَ وجهُه[2] حينَ رأى وفدَ مُضَر ومَا بهمْ من فاقةٍ وجوع، فخطبَ ونادى الناسَ لمساعدتِهم والوقوفِ معهم[3].

وربَّما قضاها في قضاءِ حوائجِ المسلمين، كما في قسمتِه لميراثِ بناتِ سعدِ بن الرَّبيع رضي الله عنه، وهنَّ أولُ نسوةٍ ورثْنَ من أبيهنَّ في الإسلام[4].

وكانَ ﷺ يراعي حالَ الناسِ بعدَ صلاةِ العصر، وذلك لحاجتهم للانصراف لإكمال أعمالِهم وإعداد عشائِهم، ثم ينقلبُ ﷺ إلى بيوتِ نسائِه فيطوفُ عليهنَّ جميعًا، ثم يبيتُ عندَ التي تكونُ نوبتُها.

---

(١) ينظر: «الشوقيات» (١/ ٣٦).

(٢) أي: تغيَّر وجهه وبدا عليه التألُّم لحالهم. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٧/ ١٠٢)، و«هدي الساري» (ص١٨٩).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (١٠١٧).

(٤) ينظر: «مسند أحمد» (١٥٠٢٠)، و«سنن أبي داود» (٢٨٩١، ٢٨٩٢)، و«جامع الترمذي» (٢٠٩٢)، و«المستدرك» (٤/ ٣٣٣، ٣٤٢)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص١٤٥- ١٤٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وهنا كانَ ﷺ يصنعُ القدوةَ لبيوتِ المسلمينَ في عهدِه ومنْ بعدِه منْ خلالِ تلكَ المجالسِ الأسريةِ العلميةِ، فكانَ يمزجُ لهنَّ العلمَ بالحب، وهذهِ المجالسُ هي التي تخرجتْ منها عائشةُ رضي الله عنها وسائرُ أمهاتِ المؤمنين، إذْ كانتْ هيَ ساعتهنّ للمذاكرةِ معَ النبيِّ ﷺ، وفيهَا سألتْه عائشةُ رضي الله عنهما: «هلْ أتى عليكَ يومٌ كانَ أشدَّ من أحد؟!»(١).

وما زلنا في ساعاتِ هذا اليومِ المبارك، إذْ كانت الصلاةُ هي مفاصل هذا اليومِ وحياته، فإذا غربت الشمسُ خرجَ ﷺ إلى صلاةِ المغرب، ولا يتحدثُ بعدَها للناسِ كسائرِ الصلواتِ؛ لحاجةِ الناسِ للانصرافِ، وقد كان هذا الوقتُ هو وقت عَشائِهم، وكانَ يأمرُ أصحابَه أنْ يأخذُوا معهم فقراءَ المسلمين، ويبدأُ بنفسِه فربما أخذَ عشرةً فذهبَ بهم إلى بيتِه إنْ كانَ عندَه طعام(٢)، ولئنْ كانتْ حجراتُه ﷺ لا تتجاوزُ غرفةً في بيوتِنا فلقدْ كانَ صدرُه أوسعَ وأرحبَ من جميعِ بيوتنا!

وهكذا تتزاحمُ الشمائلُ المحمديةُ وتأخذُ بعناقِ بعضِها بعضًا، فمَا أن تتبدى لكَ حسنى حتى تدلُّك على أختِها، ثم يختمُ ﷺ يومَه بالصلاةِ كما استفتح يومَه ﷺ بالصلاةِ متبعًا تعاليمَ القرآن وتوجيهاتِه:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٢، ٣٥٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٧).

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨ - ٧٩].

أمَّا الليلُ النبويُّ فله شأنٌ آخرُ في يومه ﷺ، كيف وربُّه تعالى يقولُ له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧ - ٨].

وصلاتُه ﷺ في الليلِ لمْ تكنْ كأيِّ صلاة، تصفُها أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها فتقول: «مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلاَ فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلاَ تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلاَ تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلاَثًا»[1].

وحلقْ بقلبك في قولِها رضي الله عنها: «فلا تسلْ عن حسنِهن وطولِهن»؛ إنّها الذائقةُ الإيمانيةُ التي اكتسبتْها رضي الله عنها من عشرتِه ﷺ.

«فلا تسلْ عن حسنِهنَّ وطولِهنَّ»، إنها صلاةٌ حسناء وحسبُك أنْ تصفَها أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رضي الله عنها بذلك، إنَّها صلاةٌ حضرَ فيهَا الروحُ والجسد، فكانتْ جديرةً بهذا الوصف؛ لأنها مُزكّاةٌ من السماء، نقيةٌ في الصفاء، فعلام لا تكونُ (حسناء)؟

وهكذا تستغرقُ الصلاةُ ليلَه فإذا بقيَ سدسُ الليلِ نامَ الجسدُ الطاهرُ، وارتاحَ في هذا الوقتِ اليسير.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧، ٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٨).

يَبِيتُ يُجَافِي جنبه عَنْ فِرَاشِه

إذَا استثقلتْ بِالمشركينَ المضاجعُ[1]!

ومن عجائبِ لياليه ﷺ أنَّه حينَ أوشكتْ أيامُه ﷺ على الرَّحيل، اشتاقَ إلى صحابتِه الذين رحلُوا قبلَه، فكانَ منهُ الوفاءُ لهم يخرجُ إلى مراقدِهم في البَقِيعِ ليلًا والناسُ نائمون، فيدعُو لهم ويستغفرُ لهم[2]، إنّه الوفاءُ في أحلى صُوَرِه:

يا سيدَ الأبرارِ حبُّك في دمِي

نهرٌ على أرضِ الصبابةِ جارِ[3]!

وهكذا يتصرمُ الليلُ ما بينَ صلاةٍ ودعاءٍ وذكرٍ واستغفارٍ ونوم، وبهذا ينتهي هذا اليومُ النبويُّ المباركُ ليبدأَ يومٌ آخرُ معَ بزوغِ فجرٍ جديدٍ، على صوتٍ شجيٍّ خاشعٍ، نداء المؤذِّن الحبيب بلال بن رباح ﷺ: «الصلاة خير من النوم».

صحيحٌ أنَّ هذه إشارةٌ سريعةٌ في يومٍ واحدٍ في حياتِه ﷺ، ولكنّه في أعمارِ غيرِه منْ نخبةِ البشرِ بلْه عن غيرِهم من العامة، شهورٌ وسنوات، وسرُّ هذه البركة -والله أعلم- هوَ في الذكرِ الشموليِّ بجميعِ أنواعِه وصورِه، فقدْ كانَ ﷺ يلهجُ بذكرِ اللهِ قائمًا وقاعدًا وعلى جنبِه استغفارًا

(١) من شعر عبد الله بن رواحة ﷺ. ينظر: «صحيح البخاري» (١١٥٥، ٦١٥١).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٩٧٤).

(٣) ينظر: «ديوان عناقيد الضياء».

وتسبيحًا وصلاةً وقرآنًا، وهنا سرُّ العظمةِ والقوة، فمنْ وجدَ اللهُ فماذا فقد؟ ومنْ فقدَ اللهُ فماذا وجد؟

إننَا في تدافعِ الحياةِ وازدحامِها، وسباقِ الوقتِ وتراكمِ المهامِ لا بدَّ أن نعرضَ أيامَنا على هذا اليومِ النبويِّ المبارك.

إنَّنَا بأمسِّ الحاجةِ أنْ نغترفَ منْ هذا البحرِ: الإنجازَ الهادي، والتعاملَ الراقي، والعطاءَ الباقي.

كذلكَ إذَا تأملتَ في يومِه ﷺ، وجدتَ أن أبرزَ طريقٍ سلكَه إلى قلوبِ الناسِ كانَ بعدَه عن التكلفِ وتواضُعَه.

كانت السهولةُ والعفويةُ جسرَه إلى القلوب، يضحكُ مع أصحابه، ويداعبُ صغارَهم، ويُمازح كبارهم ولا يقول إلا حقاً. وقدْ زادتْه هذه البساطةُ حبًّا في القلوب، وإجلالًا في النفوس.

هذا اليومُ النبويُّ كانَ مرصَّعًا بالفرحِ والبهجة، الفرحِ بكلِّ معانيه، الفرحِ باللهِ، والفرحِ معَ خلقِه.

إنه برغمِ جسامةِ المهمة، وعظمِ الوظيفة؛ إلا أن الفرحَ وانشراحَ الصدر كانَ ملازمًا له ﷺ، فأنَّى لمنقبضِ الصدرِ أن يقومَ بواحدةٍ من وظائفِه ﷺ؟

لقدْ تتابعتْ عليه ﷺ محنُ الحياةِ ونوائبُها الشديدة، ومعَ ذلك كان رؤوفًا رحيمًا بالمؤمنين.

والوصيةُ التذكيرية لنا بعد هذا التطواف: أن نعرضَ مهامَنا اليومية على حياتِه ﷺ، فننهلَ من معينِه، ونستسقي من أخلاقِه، ونحاكي تعاملَه، وننشرَ سنتَه ﷺ لجميع البشر: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *

مَهَالِكُ الظَّنُونِ

حَسِّنِ الظَّنَّ تعشْ في غبطةٍ
إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ مِن أوقى الجُنَنْ

ابن ليون التُّجيبي

في مُسْتَهَلِّ السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية بعث ﷺ سريةً من أصحابه إلى الحُرَقاتِ من جُهَينة[1]، ولمّا أصبحُوا هربَ القوم، فخرجت السريةُ في آثارهِم، فأدرك أحدُ روّاد هذه السرية رجلًا من القوم فجعلَ يقولُ الرجل: «لا إله إلا الله»، وفي روايةٍ: جعلَ يكبِّر لمّا رأى السيف، فظنّ هذا الصحابيُ رضي الله عنه أنّ الرجلَ تدرَّعَ بالشهادةِ ليحصنَ دمَه كصنيعِ المنافقين، فشدَّ عليه فقتلَه!

ثُمَّ ما زالَ هذا الموقفُ في نفسِه، حتى أتى النبيَّ ﷺ وألقى الهمَّ الذي أشغلَ بالَه بينَ يدي النبيِّ ﷺ، فقالَ له ﷺ: «**أَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَتَلْتَهُ؟**». فأجابَ هذا الصحابيُّ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما قالها خوفًا من السِّلاح! فأتتْهُ الإجابةُ النبويةُ التي غيَّرتْ مجرى حياته، فكان درسًا له لم ينسَهُ حتى مات: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟**»، ثم يروي لنا رضي الله عنه ندمَه: «**فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ رسولُ الله حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ**»[2].

---

(١) قبيلة منهم. ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٤/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٩، ٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

كيف إذا عرفت أن هذا الرجل من أحب الناسِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، إنه الحِبُّ ابنُ الحبِّ أسامةُ بنُ زيدٍ رضي الله عنهما، ومعَ هذا جاءَه هذا التوبيخُ النبويُّ الشديد: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟**».

«**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟**»، إنها موعظةٌ نبويةٌ عظيمةٌ للمسلم في تعامله معَ الناسِ جميعًا، موعظةٌ وعبرةٌ في معاملةِ الناسَ بالظواهِرِ لا بالبواطن، وأن تُجتنب كثيرًا من الظنون السيئة.

إنَّ الحياةَ أقصرُ منْ أن تكونَ ميدانًا لفوضى الظنون، ومضمارًا لاقتحام النوايا والقلوب.

وأسرارُ القلوبِ لا يعلمُها إلا علَّامُ الغيوب فليسَ لكَ أنْ تعتقدَ في غيرِكَ سُوءًا إلا إذا انكشفَ لكَ بعيانٍ لا يقبلُ التأويل، وما يقعُ في قلبك من الظنونِ السيئةِ فإنما الشيطانُ يلقيه إليك فينبغي أن تكذبَه فإنه أفسقُ الفساقِ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

بحسن الظنِّ دوامُ المحبة وصفاءُ المودة، ورفيعُ المروءة وصدقُ الأخوة، ولقدْ جاءَ في «روضةِ العقلاءِ» لابن حبان أن زوجةَ طلحة بن عَبْدِ اللَّه بْن عوفَ قالت لزوجها: مَا رأيتُ أحدًا قط أشدُّ لؤمًا من أصحابِك! قَالَ: «مَهْ، لا تقولي ذاكَ فيهِم، وما رأيتِ من لؤمهِم؟». قالت: إذا أيسرتَ لزمُوك، وإذا أعسرتَ جانبُوك! قَال: «ما زدتِ على

أن وصفتِهم بمكارمِ الأخلاق»، قالت: وما هذا منْ مكارمِ الأخلاق؟ قَال: «يأتوننَا في حالِ القوةِ منّا عليهِم، ويفارقوننَا في حالِ الضعفِ منّا عليهم»[1].

فتأمَّلْ كيفَ أنَّ حسنَ الظنِّ منبعٌ للمروءات، ومدارُ الأخوة والصداقات.

ولما كان حسنُ الظنِّ من الأخلاقِ بمكانٍ، بل هو زبدتُها، كان محلَّ تواصي الأخيارِ من السلفِ؛ فعنْ سعيدِ بن المسيِّب قال: «كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله: أن ضعْ أمرَ أخيك على أحسنِه، ما لمْ يأتِك ما يغلبُك، ولا تظنَّنَّ بكلمةٍ خرجتْ من امرئٍ مسلمٍ شرًّا، وأنتَ تجدُ لها في الخيرِ محملًا»[2].

وأبلغُ منه وأكملُ قولُه ﷺ: «**إيَّاكم والظَّنّ؛ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا، ولا تباغضوا، وكونوا إخوانًا**»[3].

نحنُ إلى حسنِ الظنِّ أحوجُ في هذا الزمنِ المدلهمِّ مع جميعِ مَنْ حولَنا، كيفَ وقدْ شاعَ تصنيفُ الناسِ بناءً على الأوهام والظنونِ الفاسدةِ حتى فشا الحكمُ على بواطنِهم متناسين: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟**».

---

(١) ينظر: «روضة العقلاء» (ص١٢٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٩٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورحمَ اللهُ قتادةَ لما حذَّر أهلَ عصرِه من هذا الداء فقال: «فما بالُ أقوامٍ يتكلَّفون علمَ الناس؛ فلانٌ في الجنةِ وفلانٌ في النار، فإذا سألتَ أحدَهم عن نفسِه قال: لا أدري. لعمري أنتَ بنفسِك أعلمُ منكَ بأعمالِ الناس، ولقد تكلَّفتَ شيئًا ما تكلَّفتْه الأنبياءُ قبلكم؛ قال نبي الله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شُعيب عليه السلام: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيِّه عليه السلام: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]»(١).

في مرضِ الإمامِ الشافعي رحمه الله الذي توفيَ فيه عادَه تلميذُه الربيعُ بن سليمانَ فقال: دخلتُ على الشافعيِّ وهوَ مريض، فقلتُ له: قوَّى اللهُ ضعفَك. فقال: «لو قوَّى ضعفي قتلَني». فقلت: والله، ما أردتُ إلا الخير. قال: «أعلمُ أنَّك لو شتمتَني لم تُرِدْ إلا الخير»(٢).

فتأمل كيف كان هذا الإمامُ في تعامله الراقي اللطيفِ وهوَ على فراشِ مرضِه، فلم تُثْنِه آهاتُ المرضِ أن يعلِّمَ ويوجِّه ويعذرَ ويتلطَّف، وصدقَ بعضُ العلماءِ حينَ قال: «أسوأُ الناسِ حالًا: مَن لمْ يثِقْ بأحدٍ لسوءِ ظنِّه، ولم يثقْ به أحدٌ لسوءِ فعلِه!»(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٦١)، و«تفسير الطبري» (١١/ ٦٤٤).

(٢) ينظر: «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص٢٠٩)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١١٦).

(٣) ينظر: «بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر (١/ ٤٢١).

ورحمَ اللهُ قتادةَ لما حذَّر أهلَ عصرِه من هذا الداء فقال: «فما بالُ أقوام يتكلَّفون علمَ الناس؛ فلانٌ في الجنةِ وفلانٌ في النار، فإذا سألتَ أحدَهم عن نفسِه قال: لا أدري. لعمري أنتَ بنفسك أعلمُ منكَ بأعمالِ الناس، ولقد تكلَّفتَ شيئًا ما تكلَّفتْه الأنبياءُ قبلكم؛ قال نبي الله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شُعيب عليه السلام: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيِّه عليه السلام: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]»(١).

في مرضِ الإمام الشافعي رحمه الله الذي توفيَ فيه عادَه تلميذُه الربيعُ بن سليمانَ فقال: دخلتُ على الشافعيِّ وهوَ مريض، فقلتُ له: قوَّى اللهُ ضعفَك. فقال: «لو قوَّى ضعفي قتلَني». فقلت: والله، ما أردتُ إلا الخير. قال: «أعلمُ أنّك لو شتمتَني لم تُرِدْ إلا الخير»(٢).

فتأمل كيف كان هذا الإمامُ في تعامله الراقي اللطيفِ وهوَ على فراشِ مرضِه، فلم تُثْنِه آهاتُ المرضِ أن يعلّمَ ويوجّه ويعذرَ ويتلطَّف، وصدقَ بعضُ العلماءِ حينَ قال: «أسوأُ الناسِ حالًا: مَن لمْ يثِقْ بأحدٍ لسوءِ ظنِّه، ولم يثِقْ به أحدٌ لسوءِ فعلِه!»(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٦١)، و«تفسير الطبري» (١١/ ٦٤٤).

(٢) ينظر: «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص٢٠٩)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١١٦).

(٣) ينظر: «بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر (١/ ٤٢١).

ومن المهم أن نمحوَ عن أذهانِنا ما يلقيه الشيطانُ من أنّ سوءَ الظنِ حصافة، وحسنَ الظنِ بلاهة، والحكمَ على بواطنِ الناسِ فراسة؛ إذ مَن كانَ هذا شعارَه ما يلبثُ أنْ يدومَ له صاحب، أو يبقى له محب، فالحياةُ عندَه باهتةٌ لا لونَ لها، وصاخبةٌ لا طعمَ لها، فسوءُ الظنِ هو المقدَّم، واقتحامُ نوايا الناسِ هوَ المعظم.

والمتأمِّلُ في واقعِنا المعاصرِ يجدُ ألوانًا متنوعةً عندَ بعضِهم في هذا المستنقعِ الآسن، وصورًا عجيبةً في هذا الوادي السَّحيق.

فَمِنْ صُوَرِ سُوءِ الظنِّ مثلًا فِي الحياةِ الأسرية: الإغراقُ في الشك، والغِيرةُ الزائدة، والحساسيةُ المفرطةُ تجاه كلِّ قولٍ وفعل، ومراقبةُ التصرفات والاتصالات والرسائل بشكلٍ مريب، وجعلُ البيتِ -الذي كان يُفترَضُ أن يكونَ سكنًا ورحمةً- زنزانةَ تحقيقاتٍ لكلِّ شاردةٍ وواردة، في حين أنَّ العافيةَ -ولا سيما في الحياةِ الأسرية- في عشرةِ أجزاءٍ كلُّها في التغافلِ، كما يقولُه الإمامُ أحمدُ رحمَه اللهُ(١).

ومِنَ الصورِ المعاصرةِ في سوءِ الظنِّ في التعاملِ بينَ الناس: أنّك ترَى المُبْتَلينَ بسوءِ الظنِّ يترصَّدونَ للناسِ أوقاتَ اتصالِهم ويُؤَوِّلُونَ عدمَ الردِ على رسائلِهم تجاهلًا، ويتخذونَ بناءً على هذا قرارًا بالهجرِ والقطيعة، وما أكثرَ ما جلبتْ هذهِ المجموعاتُ التواصليةُ من قصصٍ

---

(١) ينظر: «شعب الإيمان» (٨٠٢٨)، و«تهذيب الكمال» (١٩/ ٣٦٩- ٣٧٠)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ١٧)، و«الفروع وتصحيح الفروع» (٨/ ٤١٢).

مؤلمةٍ ربما وصلت للمحاكمِ بسبب سوء الظن واقتحام نوايا الناس، واللهُ المستعان.

ومن صورِ سوءِ الظنِ بينَ العاملينَ والموظفين: عَدُّهم أيَّ نصيحةٍ ونقدٍ تعييرًا وفضيحة، فيُسدَّ بذلكَ عنْ نفسِه كلَّ ارتقاءٍ بذاته، وتطويرٍ لنفسِه، فيتأخرُ إذْ يتقدمُ الناس، فيتخطّاه الزمن، وهُوَ ما يزالُ في سوءِ ظنِّه يتمدد.

ومنْ صورِ سوءِ الظن: النظرةُ السوداويةُ للمجتمعِ واتهامُه وتكفيرُه، وبغية انعدام أمنه واستقراره، ومعلوم أن في الأمن والأمان تعمرُ المساجدُ وتصفو العبادة، ويُنشَر الخيرُ وتُحقَن الدماء، وتُصانُ الأعراضُ وتُحفَظُ الأموال، وتتقدَّمُ المجتمعاتُ وتتطوَّرُ الصناعات، لكن سيئَ الظنِّ، قبيحَ العمل، لا ينظرُ إلا من عينٍ سوداء، وقلبٍ أسود، يتمنى السوء، ويقولُ السوء، ويفعلُ السوء، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض، ومنْ لمْ يجعلِ اللهُ له نورًا فما له من نور.

وإنّ ممّا يُنَجّي الناسَ من الوقوعِ في هذا الوحلِ الظنيِّ المُنتنِ هوَ اتباع المنهج الشرعي في الحكمِ على الناسِ بظواهرِهم وتركِ بواطِنِهم إلى خالقِهم فهو أدرى بهمْ سبحانَه وتعالى، فسيِّدُ البشرِ ﷺ معَ إعلامِ الوحيِ له كانَ يجري الأمورَ على ظواهرِها في المنافقينَ وغيرِهم ويَكِلُ سرائرَهم إلى ربِّهم(١).

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

وأعلمُ الناسِ بدينِ الله هو رسولُ الله ﷺ، فلمْ يُؤمَر أن يُنقِّبَ القلوبَ ولا أن يشقَّ الصدور[1]، وقدْ كانَ ممّا علّمَ المُلْهَمُ عمرُ رضي الله عنه رعيتَه: «لا يحلُّ لامرئٍ مسلم سمعَ من أخيه كلمةً أن يظنَّ بها سوءًا، وهوَ يجدُ لها في شيءٍ من الخيرِ مخرجًا»[2]، والتماسُ الأعذارِ فنٌّ رفيعٌ لا يعرفُه إلا أصحابُ النفوسِ الرفيعة، والأخلاقِ العظيمة:

تــأنَّ ولا تعجلْ بلومِك صاحبًا

لعلَّ له عــذرًا وأنــتَ تـلـومُ[3]!

* * *

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٣٥١)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٤).

(٢) ينظر: «الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ» لابن أبي زيد القيرواني (ص١٨٠)، و«التمهيد» (١٨/ ٢٠)، و«بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر (٢/ ٤٢٨).

(٣) ينظر: «ديوان دِعْبل الخُزاعي» (ص٢٣٦).

وَاحَةُ الحَيَاء

(ما عاقبَ اللهُ قلبًا بأشدّ من أن يَسلبَ
منه الحياء)

مالك بن دينار رحمه الله

في رحلةٍ مُضْنِية استغرقتْ خمسة وأربعين يومًا، خرجَ نبيُّ الله موسى عليه السلام من مصرَ مناجيًا ربَّه: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

فوردَ ماءَ مدين حيثُ تجمع الناس وتزاحمهم على الماء، ووجد في ناحية هذا الزحام امرأتين تمنعانِ أنعامَهما من الشرب، وتذودان عن الزحام. سألهما بلطفٍ وأدب: ما خَطبُكُما؟

فأجابَتا باستحياء: لا نَسقِي حتى يذهبَ الرجالُ بمواشيهم فلا يبقَى الزحام، وليسَ عندَنا من يسقي لنا من الرجال؛ لأنَّ أبانا شيخٌ كبير! تحركتْ شهامة نبي الله موسى عليه السلام، وأَنْسَتْهُ إعياء السَّفر ونصبه، وحضرت الرجولةُ والشهامة، فاقتحمَ الزحام، ووسَّعَ الطريقَ وسَقَى لهما، وقَضَى حاجتَهما.

رجعتِ الفتاتانِ على غير عادتِهما في بكورٍ إلى والدِهما الشيخِ الكبيرِ، وقصَّتَا عليه الخبر، فأمرَ إحداهما بدعوتِه؛ فجاءَته وكأنَّها «واحة حياء» ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

قال عمرُ ﵁ -كما في «مصنف ابن أبي شيبة»-: «فأقبلتْ إليه ليسَتْ بسَلْفَع من النساء[١]، لا خرَّاجةً ولا ولَّاجةً، واضعةً ثوبَها على وجْهِها»[٢]. وهي تقولُ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

ثُمَّ انطلقتْ معه إلى والدها، وقَصَّ عليه القَصص، فوجدَ منهُ أُنسًا وراحةً وسكينة، وتلطُّفًا في القول: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

ولمَّا كانَ الزوجُ الصالحُ أبًا بعد أب، رأى هذا الشيخُ الصالحُ أن يشتريَ أخلاقَ هذا النبي الصالح، فعرض عليه إحدى ابنتيه هاتين، فاختارَ عليه السلام تلك الفتاة التي رأى حياءَها الظاهر، وسمع كلامَها الطاهر.

قال بعضُ المفسرين: «إنَّما اختارَها لأنَّها التي عرفَ أخلاقَها باستحيائِها وكلامِها؛ فكانَ ذلك ترجيحًا لها عنده»[٣].

إنَّ في قَصص القرآن الكريم أخلاقًا عظيمة، وقِيَمًا جليلة، تتجلَّى بمثل هذه الحادثةِ اللطيفةِ التي صوَّرتْ مشهدًا بديعًا من حياء صفوة الخلق وأطهرهم، وجسَّدتْ مفهومًا رائعًا لرُقي تعاملِهم، وعُلو أخلاقِهم.

---

(١) السَّلَفَع من النساء: الصخَّابة البذيئة السيئة الخُلُق. ينظر: «تاج العروس» (٢١/ ٢١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣١٨٤٢).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور (٢٠/ ١٠٦).

وأنتَ أيُّها القارئ الكريم: إذا تأملتَ في ناظم خيط هذه المنظومة الأخلاقية البديعة، من خلال هذه القصة الفريدة؛ بزغَ لكَ طيفٌ جميل، وخُلُقٌ لطيف؛ اسمُه: «الحياء»، وذلك في جميع أطرافِ هذه القصة القرآنية.

لقد كانَ **الحياءُ** طريق هذا البيتِ لمصاهرةِ نبيٍّ كريم من أُولِي العَزم مِنَ الرُّسلِ، وما كانَ عليه الصلاة والسلام أن يختارَ بستانَ الحياء، وسكنَ الحياء، وزوجَ الحياء، لرفيقةِ دربِه؛ لو لا أنَّه كانَ حييًّا كريمًا.

كيفَ وقد وصفَه نبيُّنا ﷺ بقولِه -كما في «الصحيحين»-: «**إنَّ موسى كانَ رجلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرَى مِنْ جلدِه شيءٌ استحياءً منه**»[1].

إنَّ الحياءَ هُوَ الحياة؛ لهذا كانَ اشتقاقُه منَ الحياة، وكانَ الغيثُ حَيًا؛ لأنَّ به حياة الأرض والنبات والدواب[2].

والحياءُ أيضًا حائلٌ بينَ المرءِ وبينَ الزواجر والمنهيات، فبِقُوَّتِه يضعفُ اقتحامُها، وإذا ارتحلَ الحياءُ تقحَّمَ المرءُ ركوبَ هذهِ المخاطر، وتجرّأَ على مباشرتِها، وصدقَ في ذلك قولُ الأول[3]:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي
وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلّا الحَيَاءُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) ينظر: «الجواب الكافي» (ص٦٩).

(٣) ينظر: «روضة العقلاء» (ص٥٨)، و«ديوان علي بن الجهم» (ص١٠٣).

فَـكَـانَ هُـوَ الـدَّوَاءُ لَهَـا وَلَـكِـنْ

إِذَا ذَهَــبَ الحَـيَـاءُ فَــلَا دَوَاءُ

بل إنَّ الحياءَ شعارُ العقلاء كلِّهم فضلًا عن المسلمين، فهؤلاء العربُ في جاهليتهم كانوا يتحصنونَ به عن خوارم المروءة، وسفاسف الأخلاق، وفجور الخصومة؛ فحينَ استدعى هرقلُ أبا سفيانَ رضي الله عنه -قبل إسلامه- شاهدًا على رسول الله ﷺ كانت الفرصةُ سانحةً له للانتقام والتَّشفي، فمنعَهُ الحياءُ حتى قال -كما في «الصحيحين»-: «فَوَاللهِ، لَوْلَا الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ»[1].

كيفَ وقد عُلِمَ أنَّ الحياءَ دِثارُ أهلِ الإيمان، وخُلُقُ الإسلام؛ كما قالَ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ**»[2].

وكيف لا نكونُ أحق بهذا الخُلُق، وهوَ من ميراثِ الأنبياءِ جميعًا؛ كما أخبرَ بذلك الصادقُ المصدوقُ، فقالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**»[3].

ولما كانتْ هذه الأمةُ خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناسِ؛ فإنَّها قد بَلغتْ في الحياءِ أعلى الرُّتَب، وقد كانَ نبيُّنا ﷺ إمامًا في هذا الخُلُق؛ فعن أبي سعيدٍ الخُدْري رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١، ٤١٨٢) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهما، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

خِدْرِهَا[1]، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»[2]، فليسَ احمرارُ الوجه من الحياءِ بعيبٍ ولا مذمةٍ في الرجال، بل هوَ من كواملِ المروءة والخُلُق.

وقدْ ورثَ الصحابةُ الكرام رضي الله عنهم هذا الخُلُق منْ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فهذا الصِّدِّيقُ -السَّابقُ إلى كلِّ مَكرُمةٍ- يقولُ رضي الله عنه: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَظَلُّ حِينَ أَذْهَبُ إِلَى الْغَائِطِ فِي الْفَضَاءِ مُتَقَنِّعًا بِثَوْبِي؛ اسْتِحْيَاءً مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»[3].

وقد بلغَ ذُو النورينِ عثمانُ رضي الله عنه القِدْح المُعَلَّى في هذا الخُلُق؛ فكانتْ تستحي منه الملائكة، قالَ عنه ﷺ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟!**»[4].

وهذا أبو الحسن أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضي الله عنه صهرُ رسولِ اللهِ ﷺ يقولُ عن نفسِه: «كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً، فَكُنْتُ أَسْتَحِي أَنْ أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ، فَأَمَرْتُ الْمِقْدَادَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «**يَغْسِلُ ذَكَرَهُ وَيَتَوَضَّأُ**»[5].

---

(١) الخِدر: ستر يُجعل للبكر في جنب البيت. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٦)، وابن أبي شيبة (١١٢٧)، وأحمد في «الزهد» (١١٧٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٣٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٩)، ومسلم (٣٠٣).

وكيفَ لا يتسابقُ هؤلاءِ الكوكبةُ المختارةُ لصحبةِ رسولِ اللهِ ﷺ في خُلُقٍ هوَ أمارةُ الإيمان، وبرهانُ حياةِ القلب، فكلَّما كانَ القلبُ أحيى، كانَ تام الحياء، وكلما ضعفَتْ حياةُ القلبِ ضعفَ الحياء.

ولهذا كان ذهابُ الحياءِ من أعظم العقوبات، ولقد قال الإمام مالك بن دِينار: «ما عاقبَ اللهُ قلبًا بأشدَّ منْ أنْ يَسلبَ منه الحياء»(١).

وأعظمُ الحياءِ: الحياءُ منَ اللهِ تعالى، بأن تحفظَ الرأسَ وما وعى، والبطنَ وما حوى، وأن تذكرَ الموتَ والبلى، ومَن أرادَ الآخرةَ تركَ زينةَ الدنيا(٢).

أخبرَ ابنُ عمر رضي الله عنهما قال: مرَّ ﷺ على رجلٍ وهوَ يعاتبُ أخاه في الحياء، يقول: إنكَ لتستحْيِي، حتّى كأنه يقول: قد أضرَّ بك! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهُ، فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ**»(٣).

وإنَّنا اليومَ لنقولُ هذا لأهلِ الإيمانِ في زمنٍ انتكستْ فيهِ الفطرةُ، وقُلِبَت فيهِ المفاهيم، **فإذا الحياءُ**: ضعفُ شخصيةٍ، وخورٌ وجبنٌ عند بعضِهم، واللهُ المستعان.

---

(١) ينظر: «تنبيه المغترِّين» لأبي المواهب الشعراني (ص٢٢٩).

(٢) كما رُوي من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعًا. أخرجه أحمد (٣٦٧١)، والترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم (٤/ ٣٢٣)، وضعَّفه الترمذي، واستنكره ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٧٧)، والذهبي في «الميزان» (١/ ٥)، والصواب وقفه على ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤، ٦١١٨)، ومسلم (٣٦).

وَإذا كانَ الحياءُ في الرجلِ واجبًا فإنه في المرأةِ أوجب، وإذا كانَ في الرجلِ كمالًا فإنه في المرأةِ جمالٌ، ولهذا فإنه ينبغي للآباء أنْ يغرسُوا في بُنياتِهم أنَّ الحياءَ زينةُ المرأة، وأن سترَ الظاهرِ نابعٌ عن جمالِ الباطن، فينبغي لكلِّ أبٍ يرومُ أن تكونَ ابنتُه أملًا له أن يَسقيَها بماءِ الحياء؛ ذلكَ المنبعُ الذي ربّى به ﷺ بَضعتَه فاطمةَ الزهراء، وتَربَّتْ عليه ابنتا صاحبِ مدين؛ كما في قصةِ موسى عليه السلام.

أيها الأولياء! بناتُكم أمانةٌ عندكم، وحشمتُهن هو ذكرٌ لكم، وانسلاخُهن من الحياءِ خزيٌ لك قبلَ أنْ يكونَ خزيًا لها، وإذَا كانتْ طرائقُ التربيةِ الحديثةِ تنصُ على التربيةِ بالحب، فلقِّنْها أنَّ أعظمَ البرِ هوَ حياؤها، وعلِّمْها أنَّ شرخَ الحياءِ يمتدُّ خزيُه للآباءِ والأجداد، والحرةُ تجوعُ ولا تأكلُ بعِرضِها[1] والتربيةُ بالقيم هو الطريقُ الآمنُ لتربيةِ النفس، وهو جهادٌ ومجاهدةٌ، والوليُّ الصالحُ يدركُ أنَّ الأجرَ على قدرِ المشقة.

علِّمُوا بناتَكم أنَّ العفةَ ليسَت حاجبًا لهن عن الزواج، بلْ جالبٌ للرزق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، حدِّثوهُن عن جوائزِ الحياء، وبه سَبقت مريمُ نساءَ العالَمينَ، فذُكرت في سياقِ المصطفين الأخيار: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

---

(١) وهو من أمثال أكثم بنِ صيفي؛ ونصه: «تجوع الحرة ولا تأكل بثديها». ينظر: «الأمثال» للقاسم بن سلّام (ص١٩٦)، و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ١٢٢)، و«التذكرة الحمدونية» (٧/ ٤٥).

وما أحوجَنا -في زمنٍ يُمَجَّدُ فيه الانحلال، ويُسوَّقُ التمردُ على القيم- إلى إحياءِ ذكرِ الصالحات، وتاريخِ الماجدات، فبوصلةُ القدوةِ عندَ بعضِ فتياتنا تائهةٌ مع الأسف، تحتاجُ إلى إصلاحٍ وتذكيرٍ.

وأنجعُ السبلِ في حصانةِ بناتِنا: ربطُهن بكتابِ اللهِ وتعلّمِه وتعليمِه؛ فتلكَ رياضُ الجنة، ومناراتُ الهدى، ومدرسةُ الأنصار التي وصفتْها عائشةُ رضي الله عنهما بقولها: «وَإِنِّي وَالله مَا رَأَيْتُ أفضلَ من نسَاءِ الْأَنْصَارِ، أَشدَّ تَصْدِيقًا لكتابِ اللهِ وَلَا إِيمَانًا بالتنزيل؛ لقد أُنزلت «سُورَة النُّور»: ﴿وَلِيَضْرِبن بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبهنَّ﴾ انْقَلَبَ رِجَالُهنَّ إِلَيْهِنَّ يَتلون عَلَيْهِنَّ مَا أُنزل إِلَيْهِنَّ فِيهَا وَيَتْلُو الرجل على امْرَأَته وبنته وَأُخْته وعَلى ذِي قرَابَته، فَمَا مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا قَامَت إِلَى مرْطِهَا فَاعْتَجَرَتْ بِهِ؛ تَصْدِيقًا وإيمانًا بِمَا أنزلَ اللهُ فِي كِتَابِه»[1].

رَبُّــوا البناتِ على الفضيلةِ إنها
في المـوقـفَـينِ لهـنَّ خـيرُ وَثـاقِ
وعليكُم أن تستبينَ بناتُكم
نورَ الهُـدَى وعلى الحياءِ الباقي[2]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٥)، وأصله في «صحيح البخاري» (٤٧٥٨، ٤٧٥٩).

(٢) قصيدة طويلة؛ لحافظ إبراهيم، ينظر: «ديوان حافظ إبراهيم» (ص٢٨٣)، و«جواهر الأدب» (٢/ ٢٥٠).

بُيُوتُ الرَّحْمَة

(كان لجابر بن زيد رحمه الله بَنَاتٌ، وكان فيهن ابنةٌ مكفوفةٌ، فما سُمعَ قط يتمنّى موتَها، كأنه كان يحتسبُ فيها)

«النفقة على العيال» لابن أبي الدنيا

كانت مناقبُه أكثرَ من أن تُحصَى، وفضائلُه أربى من أنْ تُعَد، فهو أحدُ السابقين إلى الإسلام، وأحدُ العشرة المبشَّرين بالجنَّة، بيدَ أنَّه ﵁ كدَّرَ عليه غيابُه عن حضور أعظم مشاهد الإسلام، كان قلبُه يحترقُ ألمًا وأسى على غيابه، كيف وقد اطلعَ اللهُ على أهل بدرٍ فغفرَ لهم(١)، كيفَ وشهودُ بدرٍ صارَ في الناسِ منقبةً تُذكرُ، وفضيلةً تُشكر(٢).

لكن حين تعلم أنه تغيَّبَ عنها لعذرٍ وهو تمريضُه لزوجه بنتِ رسولِ الله ﷺ، فلمَّا عَلِمَ منه رسولُ اللهِ ﷺ حُزنَه على تخلُّفِه عن غزوةِ بدر، بشَّره قائلًا: «**إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهدَ بدرًا وسهمَه**»(٣).

وكما كان في هذه البشارةِ النبويةِ مسلاةٌ لعثمانَ بن عفان ﵁، فإنَّها بشرى لكلِّ قائمٍ على مريض، يشاطرُه لحظاتِ الألم، ويقاسمه آهاتِ المرض:

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٠٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٣) أخرجه البخاري (٣١٣٠).

نبّئْتُ أنّـك معتلٌّ فقلتُ لهمْ:

نَفْسي الفِدَاءُ لَهُ منْ كلِّ مَحْـذورِ

يَـا لَـيْـتَ عِـلّـتَه بي غـيرَ أنَّ لَه

أجرَ العَليلِ وأنّي غيرُ مأجُورِ[1]

المرضُ ليس ابتلاءً للمريضِ فحسب، بل إنه امتحانٌ يشملَ ذويه وأهلَه، فوالدُك الذي يرقدُ على السرير، أو أمُّك الّتي أضناها المرض، أو ابنُك الذي تقطَّعَ قلبُك لأناته، أو ابنتُك التي تهشَّمَ قلبُك لبكائِها، أو زوجتُك التي أضحتْ طريحةَ الفراش؛ اختبارٌ لإيمانِك أيُّها الصابر، وامتحانٌ لوفائِك وعهدِك، ومسبارٌ كاشفٌ عنْ صدقِ المحبةِ والوفاء، فما أسهلَ ادعاءَ الحب في أيام الرخاء، وما أصعبَها في أيام الضراء.

ولئن ابتُليَ قريبُك بالمرض فقدْ ابتُليتَ بالصحة، ولئن ابتُلى حبيبُك بالضعف، فقد ابتُليتَ بالقوة: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

واستلامُك لتقريرِ مريضِك لا يعني شهادةَ الوفاةِ لبيتِك، بل هو ابتلاءٌ لك، ونجاحُك فيه مرقاةٌ لنجاحِك في امتحانِ الرخاء، ولكَ في عروةَ بن الزبيرِ رحمه الله أسوةٌ حين بُترت رجلُه وفقدَ ابنَه، فقال

---

(١) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٥٣)، و«العقد الفريد» (٢/ ٢٨٢).

حامدًا شاكرًا: «لئن ابتَليت لقد عافيتَ، ولئن أخذتَ لقد أبقيتَ»[1].

وهو كذلك اختبارٌ حقيقيٌّ لحسنِ العهد، والحياةُ شوكٌ وورد، ومَن سره زمنٌ ساءَته أزمان، ودوامُ الحالِ منَ المحال، وليسَ من أخلاقِ الرجالِ ومروءةِ الصالحين أنْ ينعمَ الرجلُ بزوجه في صحتِها ويتبرَّمَ بها عندَ مرضِها، وليسَ من خلقِ الصالحاتِ أنْ تسعدَ مع زوجِها شابًّا صحيحَ البدنِ وتضيقَ به ذرعًا إذا دَهمَه المرض، وأوجبُ من صبرِ الأزواج، صبرُ الابنِ على مرضِ والديه، وصبرُ الوالدين على مرضِ أبنائِهما، وبحسبِ القرابةِ يعظمُ حقُّ المريض، وكلَّما عظمَ الحقُّ تأكَّدَ الصبر، وتحتَّمتِ الإعانة، وتعيَّنتِ الخدمة.

يا مَن ابتليتَ بمراعاة مريض! إياكَ إياكَ والتضجرَ منه؛ أو مللَه؛ فإنَّك لا تدري من أيِّ الأبوابِ تغشاكَ رحمةُ الله، فلربَّما هذا المريضُ هو بابُ النجاةِ لكَ وأنتَ لا تدري!

حدَّثَ أبو بكر الورَّاق قال: كانت لي بنتٌ مُبتلاة، وكانَ لَهَا نحو عَشرِ سنين، قالَ: وكنتُ أتمنَّى موتَها فماتت، قال: فأُريتُها فِي النوم وكأنَّ القيامةَ قدْ قامت، وكأنَّ صبيانًا يأخذونَ بأيدي آبائِهم فَيدخلونَهُم الجنَّة، قال: فقلتُ لبنتي: خُذِي بيدِي أدخليني الجنَّة، فقالتْ لي: لا! أنتَ كنتَ تتمنَّى موتي[2]!

---

(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (٢٢١٤)، و«المرض والكفارات» لابن أبي الدنيا (١٣٨)، و«شعب الإيمان» (٩٥٠٥).

(٢) ينظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ٢١٢).

وأشدُّ منَ ألمِ الجراحاتِ وتتابعِ المواعيدِ على المريضِ هو ضجرُ أهلِه وذويه، وتملُّلهم إيَّاه، وإحساسُه بأنَّه غدا عبئًا على أهلِه، يصدِّقُ ظنَّه صفحاتُ وجوهِهم، ونظراتُ عيونِهم، وفلتاتُ ألسنتِهم، ولهذَا عظمتْ وصيةُ اللهِ بالوالدين عند كبرِهما: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، حيثُ مظنةُ الوهنِ والمرضِ.

ولئنْ عظمَ أجرُ صبرِ المريضِ على مرضِه، فلأجرُكم على خدمتِه وراحتِه فضيلة؛ ذلك أنَّ صبرَه أقربُ إلى صبرِ الاضطرار، وصبرُكم أقرب إلى صبرِ الاختيار.

إنَّ هذا المريضَ المضطر الذي يتأوَّه هو بابُ رحمةٍ فتحَها اللهُ علينا، وخيراتُه جامعة، وبركتُه نافعة، ودعاؤُه مجابٌ إن شاء الله[1].

إنَّكم أيُّها القائمونَ على شؤونِ المرضى، بصبرِكم واحتسابِكم، تسطِّرونَ أروعَ ملحمةٍ في البِرِّ والوفاء، وإنَّ محنتكم بمريضِكم مبطنةٌ بمنح، ومتدثرةٌ بهباتٍ وعطايا، وهاهنَا بشاراتٌ متنوعة، وأحاديثُ مشوقة، تسليكم وتطيبُ نفوسَكم.

---

(١) وفي هذا المعنى ما رُوي من حديث عمر ﷺ مرفوعًا: «**إذَا دخلتَ على مريض فمرْه فليدعُ لكَ؛ فإنَّ دعاءَه كدعاءِ الملائكة**». أخرجه ابن ماجه (١٤٤١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٥٧)، وصحَّح النوويُّ إسناده في «المجموع» (٥/ ١١٨)، وبوَّب عليه: «يستحب طلب الدعاء من المريض». لكن الحديث عند التحقيق لا يصح مرفوعًا، والله أعلم، ينظر: «مسند الفاروق» (١/ ٣٢٨)، و«نتائج الأفكار» (٤/ ٢٤٣)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠٠٤).

فأُولى هذه البشائرِ أنَّ تمريضَكم وقيامَكم بحقوقِ المريض إحسانٌ لا يضيع، واللهُ يحبُّ المحسنين، واللهُ لا يضيعُ أجرَ المحسنين، ومنْ أحسنَ للناسِ أحسنَ اللهُ إليه ورزقَه محبته ورحمته: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ومن البشائرِ أن ما عندَ اللهِ من الثوابِ لأهلِ البلاءِ في الآخرة، ما يغبطُهم أهلُ العافيةِ عليه، روى الإمامُ الترمذيُّ في «جامعِه» من حديث جابر ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ**»(١).

ومنَ البشائرِ أنَّ خدمةَ هؤلاء المرضى بابُ رزقٍ ونصرٍ، وفي الحديث الصحيح: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟!**»(٢). فهم بركةٌ علينا بدعائِهم، وصدقِ عبادتِهم، وتعلقِ قلوبهم بالله، وهمْ قناديلُ رحمةٍ في بيوتِنا، وينابيعُ بركةٍ في دورِنا، وسلُوا عمنْ فَقدُوا كيفَ غدتِ الدارُ بعد رحيلِهم؟

سلوهم عن دعواتٍ افتقدوها من والديهم ومرضاهم، يجدون بركتَها توفيقًا في مسيرتِهم، وتسديدًا في حياتِهم، وهناءً في عيشِهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، والبيهقي (٣/ ٥٢٦)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٦).

فأبشرْ بالرحمةِ يا مَن ضممتَ في بيتِكَ مريضًا، فالراحمونَ يرحمهم الرحمن، ومَن كانَ في عونِ أخيه كانَ اللهُ في عونِه، ومَن فرَّجَ عن مؤمنٍ كربةً منْ كربِ الدنيا فرَّجَ اللهُ عنه من كربِ يومِ القيامة، وكلُّ هذه الأجورِ يا أهلَ المرضى حاصلةٌ لكم، فقرُّوا عينًا بها.

وإنَّ هذه البشائر لا بدَّ لها من ثمن، وثمنُها الإحسانُ في خدمةِ المريض، والقيامِ بأمرِه، وإنَّ منْ أعظمِ الإحسانِ في خدمتِه مواكبةَ العلم التجريبيِّ الحديثِ في تمريضِ المريضِ، وقد استجدَّ في زمانِنا أمراضٌ متنوعةٌ -عافنا اللهُ وإياكم منها- وهيَ تتطلبُ منَ الأولياءِ أنْ يكونُوا على قدرٍ منَ الاطلاعِ والتواصلِ مع المراكزِ المتخصِّصةِ للعلاج، والاستشارةِ والاستخارةِ والدعاء، وهنَا نهمسُ في أذنِ الأسرِ بالاعتناءِ باكتشافِ هذه الأمراضِ مبكرًا، وأن يحتسبُوا الأجرَ في مساندتِهم ومتابعةِ أحوالِ مرضاهم، ويبقى التفاؤلُ وحسنُ الظنِ باللهِ سيدَ الموقف، فمَن رحمَ الألمَ يولدُ الأمل، فانثرُوا الأملَ وازرعُوا الفأل، وبشِّرُوا المرضى، واحتسبُوا الأجر.

اللهمَّ إنا نسألك صحةً في إيمان، وإيمانًا في حُسْن خُلُقٍ، ونجاحًا يتبعه فلاحٌ، ورحمةً منك، وعافيةً ومغفرةً منك ورضوانًا[1].

* * *

(١) رُوي هذا الدعاء فيما أخرجه أحمد (٨٢٧٢)، والحاكم (١/ ٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبيَّ ﷺ أوصى سلمانَ ﷺ بهذه الكلمات، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٩١١).

بَحرُ المعَارِف

بَحـرُ المـعـارفِ تاهوا في بدايتِه

أهـلُ الْمـعَـانِي وأربــابُ النهاياتِ

أُعجوبةُ الدَّهْـرِ فَـردٌ فِي فضائلِه

عَلّامَةُ الْوَقْتِ فِي الْمَاضِي وَفِي الْآتِي

عبد الله بن خضر الرومي

كان يومًا مشهودًا، لم يُعهدْ مثلُه بدمشق، اجتمعَ فيه الناسُ اجتماعًا لو جمعهم سلطانٌ قاهر، وديوانٌ حاصر ما بلغوا تلك الكثرةَ التي انتهوا إليها.

توافدَ الناسُ على دمشقَ في ذلك اليومِ منْ كلِّ مكان، حضروا من كل القرى، ولم تُفتحْ يومئذٍ كثيرٌ من الدكاكين التي مِن شأنِها أن تُفتحَ أوائلَ النهار، إنه يومُ الجنازة!

جنازةُ من وَصَفَهُ بعضُهم بقوله: «كان كقبة الصخرة مُلِئَ كتبًا لها لسانٌ ينطق»[1].

وهنا تأتيك المقولةُ الخالدةُ للإمام أحمدَ بنِ حنبل: «قولوا لأهلِ البدع: بيننا وبينكم يومُ الجنائز»[2].

لقد فُجِعتْ دمشقُ؛ بل الأمةُ كلُّها آنذاك بفقدِ هذا الإمام.

---

(١) ينظر: «الجواهر والدرر» (١/ ١٧٧).

(٢) ينظر: «مناقب الإمام أحمد» (ص٥٦٠).

وكيف لا يكونُ هذا الوفاءُ من هذا الجمعِ الكبيرِ من الناس، لمَن كان بعضُ أصحابِه الأكابرِ يقولُ: «وددتُ أني لأصحابي مثلُه لأعدائِه وخصومه»[١].

جاءه مرةً تلميذُه مبشِّرًا له بموتِ أكبرِ أعدائه، وأشدِّهم أذى له فنهرَه، وتنكَّرَ له، واسترجعْ! ثم قامَ من فَورِه إلى بيتِ أهلِه فعزَّاهم، وقال: «إني لكم مكانَه، ولا يكون لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلى مساعدة، إلا وساعدتُكم فيه». فسُرُّوا بذلك، ودَعَوا له، وعَظَّمُوا هذه الحالَ منه[٢].

وأما نبأُ هذا العالمِ في صغرِه، فإن اللهَ جعلَ له الزهدَ شعارًا، حدَّثَ عنه شيخُه الذي علَّمه القرآن فقال: «قالَ لي أَبوهُ -وَهُوَ صبيّ-: أُحبُّ إليك أَن توصيه وتعِدَهُ بأنك إِن لم تَنْقَطِعْ عَن القراءةِ والتلقين، أدْفعْ إليك كلَّ شهرٍ أَرْبَعِينَ درهمًا -وَدفعَ إِلَيّ أَرْبَعِينَ درهمًا- وَقَالَ: أعْطه إِيَّاهَا فَإِنَّهُ صَغِيرٌ وَرُبمَا يفرحُ بهَا، فَيَزْدَادُ حرصُه فِي الاشْتِغَالِ بحِفْظِ الْقُرْآنِ ودرسِه، فَامْتنعَ من قَبُولِهَا وَقَالَ: يَا سَيِّدي، إِنِّي عَاهَدتُ اللهَ تَعَالَى أن لَا آخذَ على الْقُرْآنِ أجرًا! وَلم يَأْخُذهَا. قال الشيخُ: فَرَأَيْتُ أن هَذَا لَا يَقعُ من صبيٍ إِلَّا لما للهِ فِيهِ من الْعِنَايَة»[٣].

---

(١) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٨).

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٨- ٣٢٩).

(٣) ينظر: «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» (ص٤٥).

ومِنْ خَبرهِ في رشدِه: أنه في سنةِ اثنتين وسبعمائة لما تحركَ التتار، وقصدوا الشامَ، قام هذا الإمامُ في الناس، وأخبرَهم أن الدائرةَ والهزيمةَ على التتار، وأن الظفرَ والنصرَ للمسلمين، وأقسمَ على ذلك.

فيُقالُ له: قلْ: إن شاءَ الله، فيقولُ: إنْ شاءَ اللهُ تحقيقًا لا تعليقًا؛ تفاؤلًا بموعود الله، ويقينًا بنصر الله. وحصل ما قال الشيخ، واندحر التتار(١).

إننا نقفُ في رحاب الإمام الرباني شيخ الإسلام، أبي العباس، أحمدَ ابن تيميَّة قدس الله روحه.

وحين نتكلمُ عن ابنِ تيمية، فإننا نتكلمُ عن رجلِ عامَّة، بذلَ نفسَه للناس؛ فقد كان مَجلِسُه عَامًّا للكبيرِ وَالصَّغير، وَالذكرِ والأنثى، وَكَانَ في كلِ أسبوعٍ يعودُ المرضى، وكان -رحمَه اللهُ- يُدني الْفَقِيرَ الصَّالحَ ويُكرمُه ويؤنسُه، ويباسطُه بحديثه؛ زِيَادَةً على مثله من الأغنياء؛ حَتَّى إنَه رُبمَا خدمَه بنَفسِه، وأعانَه بِحمْلِ حَاجتِه؛ جبرًا لِقَلْبِه، وتقربًا بذلك إلى ربهِ.

وَكَانَ لَا يسأمُ مِمَّن يستفتيه، بل يُقبلُ عَلَيْهِ ببشاشةِ وَجه، ولِينِ عَريكَة(٢)، وَيقفُ مَعَه حَتَّى يكونَ هُوَ الَّذِي يُفَارِقه، وَلَا ينفِّرُه بِكَلَامٍ يوحشُه، بل يجِيبُه ويُفهِمُه بلطفٍ وانبساط.

---

(١) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٥٨)، و«البداية والنهاية» (١٨/ ٢٣).
(٢) العريكة: الطبيعة والنفس، يقال: هو لين العريكة، أي: سلس منقاد. ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٠٧).

يقولُ أحدُ تلامذته واصفًا خُلقَه معه: «وَلَقَد بَالغ معي فِي التَّوَاضُع وَالْإِكْرَام، حَتَّى إِنَّه لَا يذكرنِي باسمي، بل يلقبْني بِأَحْسَنِ الألقاب، وَيظْهرُ لي خصوصًا بين أصحابي من الْإِكْرَام والتبجيلِ والإدناءِ مِنْه؛ بِحَيْثُ لَا يتركني أجْلِسُ إلا إلى جانبه»[1].

ورغمَ هذا الاشتغالِ الكامل، فإنه لم يغفلْ عن الاهتمام بتعليم المرأة وتوعيتها؛ حيثُ كان له تلميذاتٌ من النساءِ يحضرنَ دروسه، منهن: فاطمةُ البغدادية، وكانَ يُثني عليها، ويصفُها بالفضيلةِ والعلم، بل بلغَ تواضعُه أنه كان -رحمَه اللهُ- يستعدُّ لها من كثرةِ مسائلِها وحُسنِ سؤالاتِها، وسرعةِ فهمِها، كما نقله ابنُ كثير رحمه الله[2].

وهذا يدلُ على شمولِ رؤيته الإصلاحيةِ في التعليم والدعوة لجميع أطياف المجتمع، وإدراكه لعظم دور المرأة في العلمِ والتعليم.

ومِنْ أعظم ما يُقرأ في صفحات هذا الإمام: برُّه بوالدته، فلم يكنِ الاشتغالُ بأمر الناس شاغلًا له عنها، فعندما حبسته الظروفُ عن السفر إليها، كتبَ لها رسالةً ينسابُ من رحيقِها البرُّ والتلطف، رسمها بقلبه قبل قلمه:

«من أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقرَّ الله عينها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

---

(١) ينظر: «العقود الدُّرِّية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» (١/ ٧٦٩).

(٢) ينظر: «البداية والنهاية» (١٨/ ١٤١).

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير ونسأله أن يصلِّي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونِعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد، وتعلمون أن مقامَنا السَّاعَةَ فِي هَذِه الْبِلَاد إِنَّمَا هُوَ لأمورٍ ضَرُورِيَّةٍ، مَتى أهملناها فسد علينا أَمْرُ الدِّين وَالدُّنْيَا، ولسنا -وَالله- مختارين للبعدِ عَنْكُم، وَلَو حملتنا الطُّيُورُ لسِرْنا إِلَيْكُم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور، فإنكم -ولله الحمد- ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرًا واحدًا، بل كل يوم نستخير الله تعالى في السفر إليكم، فاستخيروا الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لكم ولنا وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية، ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال! وَنحن فِي كل وَقت مهمومون بِالسَّفرِ، مستخيرون اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»(1).

إنَّ الحديثَ عن العلماءِ وأخبارِهم، مفيدٌ للنفس، رافعٌ للهمّة، مؤثرٌ في القلب، ولقد قال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله قديمًا: «الحكاياتُ

(1) ينظر: «العقود الدُّرِّية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٣١٦- ٣١٧).

عن العلماءِ ومجالستهم أحبُّ إليَّ منْ كثيرٍ من الفقهِ؛ لأنها آدابُ القومِ وأخلاقُهم»[1].

ومن هذا البابِ قصَّ اللهُ علينا في كتابِه أحسنَ القَصَصِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وبيّنَ تعالى أن في هذه القصصِ: ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]، وأخبارُ ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة فيها حظٌّ من هذه الثمرة، فالاشتغالُ بها إصلاحٌ للنفسِ، وصعودٌ في مدارجِ الكمال، وإلا فلماذا سطَّرَ الذهبيُّ أسفارًا في أخبار الأعلام؟ ولماذا كتبَ ابنُ كثير المجلداتِ في أيامِهم؟

حقًّا إنه لضعفٌ في الدِّين أن يُشاهِد المسلمُ الطعنَ في الأئمة الكبار، والعلماء الراسخين ثم لا يدافعُ عنهم، كيف وقد قال الحبيبُ ﷺ: «**مَن ذَبَّ[2] عن عرضِ أخيه بالغِيبة، كان حقًّا على الله أن يعتقَه من النَّار**»[3]. فكيف بعرض كبار العلماء، ومفاخر الزمان؟

إنَّ بين يدي الحديثِ عن الأئمةِ صنفَين من الناسِ: الصنفُ الغالي فيهم، والصنفُ الجافي عنهم. والمنهج الصحيح هو الوسط، وهو

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥١).

(٢) الذب: المنع والدفع والحماية، والمراد: منع الغيبة عن أخيه ودفعها عنه. ينظر: «المصباح المنير» (١/ ٢٠٦)، و«تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٩).

(٣) أخرجه الطيالسي (١٧٣٧)، وأحمد (٢٧٦٠٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ١٧٥) (٤٤٢)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٦٧) من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، وحسَّنه السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٦٥٢- «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعاني).

ألّا نعتقد العصمةَ لهم، وكلٌّ يُؤْخَذُ من قَوْلِه وَيُتْركُ، والكمالُ للرسل، وَالْحُجّةُ فِي الْإِجْمَاعِ، فرحم اللهُ امْرَءًا تكلمَ فِي الْعلمَاءِ بِعلمٍ، أو صمتَ بحلم!

وقد تكونُ رحمةً من اللهِ بهذا العالم الربّاني الذي عاشَ في القرنِ الثامنِ الهجريِّ أن ينالَه الأذى والعداواتُ حتى يومِنا هذا، فلولاهم لما تجدّدت محاسنُه، ولم تنتشر كتبُه، ولم ترتفع سيرتُه.

إنَّ فيما مضى من شأنِ ابنِ تيميةَ معَ الناس مرآةً لعلاقتِه مع ربه؛ فلهذا كان -رحمَه اللهُ- آيةً في العبادة، حيثُ يكون فِي لَيْلِه متفردًا عَن النَّاسِ، خَالِيًا بربه تعالى، مواظبًا على تِلَاوَة الْقُرْآن.

لقد كان ابْنُ تيميةَ إيجابيًّا في مجتمعه يحبُّ المسلمينَ جميعًا، ويسعى لخدمتِهم ويذبُّ عن أعراضِهم، لأنه عالمُ أمّة، يناصرُ قضاياها، ويدافعُ عن ضعفائِها، ويسعى لجمعِ كلمتِها.

إنه عالمٌ مُحرِّر، وقارئٌ نهِم، وهذا العالمُ كما ينبغي، يقرأُ الجديدَ، ويحاورُ الأفكارَ، وينشرُ الوعيَ، ويحرسُ الشريعة.

ابنُ تيميةَ أذهلَ خصومَه قبلَ محبِّيه، بسعَةِ اطلاعِه، وعدلِه وكثرةِ مؤلفاته وتحريراته: إنْ في الفِكر، أو في الفَلْسفة، أو في عِلمِ الكلامِ، أو في الفراسةِ أو في المذاهب والأديان.

وإن مِن الظلم المعرفي أنَّك تَجِدُ المُتَعَالِمين الذينَ يَتَطَاوَلُونَ على هذه القامةِ العلميةِ السَّامِقَةِ ويتهمونها، لم يقرؤُوا له أصلًا، وإنما قرؤوا عنه، وهذه إحْدَى مُشْكِلاتِ المشهد الفكري المعاصر.

كُتُبُ ابْنِ تيميةَ مبثوثةٌ في كلِ مكانٍ، ومع ذلك تجد مَن يؤجرُ عقلَه لغيره، فيقرؤُها عبرَ مضخاتٍ نقديةٍ وسيطةٍ، وهنا يكمنُ الظلمُ والتجاسر!

ومنْ نكدِ المشهد الثقافي المعاصر أيضًا أنَكَ تُشَاهِدُ تَطَاوُلًا مُشَوّهًا على ابنِ تيميةَ في ساحةِ بعضِ الكُتّابِ العرب، بينما قبلَ مدةٍ ليستْ بالطويلةِ عُقِدت في إحدى الدولِ الغربيةِ الكُبْرى ندوةٌ متخصصة في قراءةِ أفكارِ ابنِ تيميةَ وعبقريته، وكيفيةِ الاستفادةِ منها[1].

صحيحٌ أن ابنَ تيميةَ ليس معصومًا، لكنه كذلك ليس كلًّا مباحًا لكلِّ باحثٍ، لم يقرأْ كتبَه بنفسِه ولم يعرفْ ابنَ تيميةَ إلا منْ خلال كتابات بعضهم عنه.

وهنا دعوة لكلِّ مفكرٍ أو ناقدٍ أو باحثٍ أن ينزلَ على ساحلِ ابنِ تيميةَ من خلالِ بوابتِه التي رسمَها بنفسه، لا منْ بوابةِ خصومِه؛ فهو أحرى للعدل والإنصاف، وليقرأ تصانيفه بنفْس صافية:

---

(١) في جامعة جورج تاون، بالولايات المتحدة الأمريكية.

فـاقـرأْ تصانيفَ الإمـــامِ حقيقةً

شـيـخِ الـوجـودِ الـعـالمِ الـربـانيِّ

أعنيْ أبَـا العباسِ أحمـدَ ذلك الـ

ـبحرَ المحيطَ بسائرِ الخُلجانِ

هـيَ في الـورى مبثوثةٌ معلومةٌ

تُبتاعُ بالغالي مـن الأثـــمانِ[1].

اللهم اغفر لأبي العباس ابنِ تيمية، وتجاوز عنا وعنه يا رب العالمين.

* * *

(١) ينظر: «نونية ابن القيم: الكافية الشافية» (٣/ ٧٦٩، ٧٧٣).

الأَخْفِيَاء

(إنّ اللهَ يعلمُ القلبَ التقي، ويسمعُ الصوتَ الخفي)

قتادة رحمه الله

قام من الليل فهتفَ في مكان خلواته، ومحل أنسه ومناجاته: يا رب، يا رب.. نداءً خفيًّا، أخفاه عن أهل الأرض، همسًا بينَه وبينَ ربِّه، كان أفضل أهل الأرضِ عند الله في زمنه، فخلَّدَ اللهُ أعمالَه في كتابه، وأثنى على ندائِه الخفيِّ في جوف الليل: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢ - ٣].

أصواتُ الأخفياءِ الأنقياء مسموعةٌ في السماء: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥] ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ولقد كثُرت حَفاوة السلف الصالح بالنداء الخفي: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾، ولمسُوا من شرف الخفاء ثناءَ الرب في السماء، قال سيدُ التابعينَ الحسنُ البصري رحمه الله: «ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمَعُ لهم صوت -إنْ كان إلا همسًا بينهُم وبينَ ربِّهم-

وذلك أنَّ اللهَ يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وذلك أن اللهَ ذكر عبدًا صالحًا، فرضِيَ فعلَه فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]»[١].

في «صحيحِ مسلم» من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إن اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ**»[٢].

من يريدُ الفضائلَ فليقرأْ هذا الحديث، فهو من جوامع الكلم التي أُوتِيَها نبيُّنا ﷺ، ومن أرادَ الآخرةَ فليتأمل هذا الحديث، ومن أرادَ الأمانَ فليتدبر هذا الحديث، ومن أرادَ محبةَ الله فليأخذ بهذا الحديث.

التقيُّ هو الكريمُ عند الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأمّا الغِنَى فهوَ غِنَى النفس، إذ أعظمُ ما يفسَّرُ به الحديثُ هو الحديث، وقد جاء في السنةِ -كما في «الصحيحين»-: «**ولكنَّ الغنى غنَى النفس**»[٣]. **والخفي** بالخاءِ يُرادُ به الانقطاعُ إلى العبادة، والاشتغالُ بأمورِ النفس، وورد في بعض رواياتِ مسلم: «**الحفي**». وهو الواصل لرحمه، اللطيفُ بهم، وبغيرِهم منَ الضعفاء[٤]، وعندَ تأملِ سيرِ الأخفياءِ يظهرُ لنا أنَّ كلا المعنيينِ يتكاملانِ ولا يتعارضان، فالخفيُّ في عبادتِه حفيٌّ بالضعفاء، رحيمٌ بالأقرباء.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) ينظر: «إكمال المعلم» (٨/ ٥١٨)، و«المفهم» (٧/ ١٢٠).

وذلك أنَّ اللهَ يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وذلك أن اللهَ ذكر عبدًا صالحًا، فرضِيَ فعلَه فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]»[١].

في «صحيحِ مسلم» من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إن اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ**»[٢].

من يريدُ الفضائلَ فليقرأْ هذا الحديث، فهو من جوامع الكلم التي أُوتِيَها نبيُّنا ﷺ، ومن أرادَ الآخرةَ فليتأمل هذا الحديث، ومن أرادَ الأمانَ فليتدبر هذا الحديث، ومن أرادَ محبةَ الله فليأخذ بهذا الحديث.

التقيُّ هو الكريمُ عند الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأمّا الغِنَى فهوَ غِنَى النفس، إذ أعظمُ ما يفسَّرُ به الحديثُ هو الحديث، وقد جاء في السنةِ -كما في «الصحيحين»-: «**ولكنَّ الغنى غنَى النفس**»[٣]. **والخفي** بالخاءِ يُرادُ به الانقطاعُ إلى العبادة، والاشتغالُ بأمورِ النفس، وورد في بعض رواياتِ مسلم: «**الحفي**». وهو الواصل لرحمه، اللطيفُ بهم، وبغيرِهم منَ الضعفاء[٤]، وعندَ تأملِ سيرِ الأخفياءِ يظهرُ لنا أنَّ كلا المعنيينِ يتكاملانِ ولا يتعارضان، فالخفيُ في عبادتِه حفيٌّ بالضعفاء، رحيمٌ بالأقرباء.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) ينظر: «إكمال المعلم» (٨/ ٥١٨)، و«المفهم» (٧/ ١٢٠).

في معاني الخفاء في قوله ﷺ: «**إن اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ**». تجتمعُ الفضائل، إنهُم الطليعةُ الذينَ انقطعُوا للعبادة فكان عملُهم سرًّا، كما قالت سُرِّيَّة الرَّبيع بن خُثيم عنه: «كانَ عملُ الرَّبيعِ كلُه سرًّا، إنْ كانَ ليجيءُ الرجل، وقدْ نشرَ المصحفَ فيغطِّيه بثوبِه»[1].

إنَّها (عبادة السِّر) تلكَ التي تورثُهم النجاةَ منَ الفتن، نعمْ فإنَّ للعبادةِ الحقةِ أثرًا في المرءِ في دنياه معَ الناس، فلا تراهُ يزاحمُهم على الدنيا، ولا يضرمُ النارَ في الفتن.

الأخفياءُ الأحفياء نجومٌ وإنْ لمْ يُروا، مشاهيرُ وإنْ لمْ يُعرَفوا!

هذَا أحدُهم رحمَه اللهُ تعالى يتكفلُ بإعالةِ مائةِ بيتٍ منْ أهلِ مدينتِه، ولمْ يعلمُوا به، وظنَّ أهله أنّه بخيل، ولمَّا ماتَ كانتِ المفاجأةُ لكلا الفريقين، أمَّا أهلُ البيوتِ فعلمُوا منْ أينَ كانَ يأتي معاشُهم حينَ فقدُوا مَا كانُوا يُؤْتَونَ بهِ في الليل، وأما أهلُ بيتِه فعلمُوا جودَ الرجل، حينَ وجدُوا بظهرِه آثارَ سواد؛ فعلمُوا أنَّه كانَ يحملُ الدقيقَ ليلًا على ظهرِه إلى منازلِ الأرامل، حينَها قالَ أهلُ المدينةِ قوْلتَهم المشهورة: «مَا فقدْنا صدقةَ السِّرِّ حتى ماتَ عليُّ بنُ الحسينِ»[2].

---

(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (١٩٨١)، و«حلية الأولياء» (٢/ ١٠٧)، و«شعب الإيمان» (٢٠٤٠).

(٢) ينظر: «حلية الأولياء» (٣/ ١٣٦)، و«تاريخ دمشق» (٤١/ ٣٨٤).

إنَّ صمامَ الأمانِ لنَا في هذه الحياة يجتمعُ في هذه الكلمات النبوية الصادقة: «**العبد التقي الغني الخفي**».

عبادةُ السِّر تربِّي في النفس معانيَ التواضع وهضم الذات، ثمَّ لا تزالُ بهِ حتى يكونَ إمامًا في الرحمة واللُّطف والنَّقاء.

أمَّا حظُّ الدنيا منْ هذا الحديثِ فهو في اعتزال الفتن، وهذه من معاني الخفاء، فإن اسْتِشْرافَ الفتن هَلاك، والنَّاسُ كَإبلٍ مائةٍ لَا تَكَادُ تجد فيها راحلة[1].

وأمَّا حظُّ الآخرة فهي في طاعة الخفاء، وهي وصية السلف لبعضهم؛ حيث كانوا يستحبونَ أنْ تكونَ للرجلِ خبيئةٌ منْ عملٍ صالح، لا تعلمُ به زوجتُه ولا غيرُها[2].

إنَّ هذه الخبيئات الصالحة هي مفاتيحُ الفرجِ في الدنيا، كمَا في قصةِ الثلاثةِ الذينَ أطبق عليهم الغار، فإنَّهم ناجوا ربَّهم بعباداتِ الخفاءِ التِي كانتْ بينَهم وبينَ ربِّهم[3]، وأما الآخرة فيكفي أنَّ منْ السبعةِ الذينَ يظلُّهم اللهُ في ظلِّه: «**ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها.. ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناه**»[4].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٤٧).

(٢) ينظر: «تهذيب الكمال» (١٤/ ٤٦٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٢١٥، ٢٢٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٣، ٦٤٧٩)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة ﵁.

والخفاءُ بمعانيه الجامعة الواردة في حديث: «**إن اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ**»، هو من أعظمِ أسبابِ الثباتِ على الدين، فقدْ قرَّرَ المحققونَ أن ذنوبَ الخلواتِ منْ أعظم أسبابِ الانتكاساتِ والعياذُ بالله، وعبادةُ الخفاءِ دليلُ النجاة، وعنوانُ الإخلاص، وعلامةُ المحبة، ولا يقوى عليها الكاذبون، ولا يعرفُها الأدعياء، ورحم الله الشيخ الزاهد إبراهيم بن أدهم حين قال: «ما صدقَ اللهَ عبدٌ أحبَّ الشّهرة»[1].

* * *

(١) ينظر: «العزلة والانفراد» لابن أبي الدنيا (ص١٢٦)، و«حلية الأولياء» (٨/ ٣١).

شَذَرَاتُ القَلَائِدِ

(١) التصالح مع النفس

(٢) تراجعات لا مراجعات

(٣) تسهيل المكروهات

(٤) طِبْ نفسًا يا طالبَ العلم

(٥) درةُ عقد التابعين

(١)

التصالح مع النفس

الناسُ ألوان في طبائعهم كألوان الطبيعة، ألوانٌ باهتة، وثانيةٌ فاقعة، وثالثة جميلة تعكس طباع الناس، وطباع أنفسهم في الحياة والمجتمع.

تغيرت الحياة وفرضت على الفرد أنماطًا وسلوكيات جديدة أثرت في النفس البشرية، والمرء الذي يصادم هذه الأنماط أو لا يحسن التعامل معها ترمي به في بحر الفوضوية.

وأحسبُ أن صمام أمان هذه المعضلة هو: «**التصالح مع النفس**»، التصالح معها في البحث عن استقرارها وطمأنينتها بالإيمان واليقين.

التصالح معها باختيار الأصحاب الصالحين همًّا ورسالةً وأدبًا واحترامًا.

التصالح معها بعدم تحميلها فوق طاقتها، والزَّج بها في الأمواج التي لا تحسن الإبحار فيها.

التصالح معها بمراجعتها وتفتيش مكامن الخلل فيها، ومعالجتها والنهوض بها إلى سلالم النجاح.

التصالح معها بعدم غشها بإضفاء الشرعية على أهوائها وأمراضها، وتربيتها على محطات الهدى والحق.

إن عدم معرفة النفس والتعارك معها مؤذن باختلال التوازن النفسي لدى الفرد الذي سيؤثر قطعًا في تصوراته واستنتاجاته، وتعامله مع المواقف والأحداث.

تأمل فيمَن حولك: كم من كتابةٍ أو موقفٍ أو تغريدةٍ أو منشورٍ لا يُفسر عند العقلاء إلا بزيادة الاعتلال النفسي لدى راقمه.

كم من بحوث منشورة، وآراء منثورة، لو سلمت من الشحن النفسي، وآفات النفس المهلكة لكانت في مراقي الفلاح ومجرَّات النجوم.

إذًا هو الاسترسال مع أهواء النفس وعللها، وتركها ترعى في مراتع الهوى والغواية، وعدم معرفتها حق المعرفة، وتنزيلها على مناطها الصحيح.

فيا خيبة مَن دسى نفسه، ويا فلاح مَن زكى نفسه.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

* * *

(٢)

تراجعات لا مراجعات

بعض المراجعات الفكرية التي نشاهدها بين الفينة والأخرى هي في حقيقتها «تراجعات لا مراجعات»، ودخيلات لا أصيلات، وإلا متى أصبحت الثوابت تُغيَّر وتُستبدل بمجرد مشاهدة مقطع، أو قراءة قصاصة، أو مشاهدة مشكِّك، أو مجادلة مشاكس، ورحم اللهُ الإمام مالك حين قال: «كلما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجل تركنا ما نزل به جبريلُ عليه السلام على محمد ﷺ لجدله؟»[(١)].

ورُوي عنه أيضًا أنه قال لرجل أراد مجادلته: «أنت رجلٌ شاكٌّ، فاذهب إلى رجل شاكّ مثلك!»[(٢)].

---

(١) ينظر: «العلل» لأحمد، رواية ابنه عبد الله (٢/ ٧٢)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٣)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٤).

(٢) ينظر: «الإبانة الكبرى» لابن بطة (١/ ٤٠٤)، و«أصول السنة» لابن أبي زمنين (ص٣٠١)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٤).

إنَّ المراجعات التي تقرِّبك إلى الله تعالى، وتزيدك قناعة بأصالة دين الله وشرعه وحججه، وتُحبِّب فيك الطاعات والمسارعة في الخيرات هي المراجعات الحقيقية، أمَّا المراجعات التي تُفسد أنوار الإيمان في قلبك، وتجعلك تتكاسل عن فرائض الله ومندوباته، وتُضعف فيك عبادة الخلوات فهي «تراجعات لا مراجعات»، وهي من تلبيسات أبالسة الثقلين، فلا خير في مراجعة تفسد الخلق، وتبعد الصديق، وتفرح العدو، وتقلِّل العبادة، وتوحش القلب، والله لا خير فيها أيها الشاب، لا خير فيها.. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

* * *

(٣)

تسهيل المكروهات

صاحبي لم يُعرف بطلب علم ولا نظر ولا بحث، وفجأة مع دخول عشر ذي الحجة يجتهد اجتهادًا لا يَكاد يقدر عليه في إثبات (كراهية) الأخذ من الشعر لمَن أراد أن يُضحي، ويبالغ جدًّا في الإنكار على مَن يرى التحريم.

بعيدًا عن مدارسة منازع الاستدلال في هذه المسألة، وفحوى الأدلة، فإن المسائل الخلافية يا صاح لا تُؤخذ غِلابًا، ووالله إن نفسك التي روضتها كل سنة على ارتكاب المكروه وتسهيله للناس؛ لهي أولى بالمراجعة والمعالجة والاجتهاد في تحصينها من الاستكثار من المكروهات والتهاون فيها.

ولقد نصح أمثالك قديمًا ابن حجر رحمه الله، فقال: «ولا يخفى أن المستكثر من «المكروه» تصير فيه جرأة على ارتكاب المنهي في الجملة، أو يحمله اعتياده ارتكاب المنهي غير المحرَّم على ارتكاب

المنهي المحرَّم إذا كان من جنسه، أو يكون ذلك لشُبهة فيه، وهو أن مَن تعاطى ما نُهي عنه يصير مظلم القلب؛ لفقدان نور الورع، فيقع في الحرام، ولو لم يختَر الوقوع فيه»[1].

فتعفَّف أيها المسلم في الوقوع في ضفاف المكروهات، فإنه ولا بد طريق لوحل المنهيات، سلمك الله من كل سوء ومكروه.

* * *

(١) ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٢٧ - ١٢٨).

(٤)

طبْ نفسًا يا طالبَ العلم

من أساليب التعليم المؤثِّرة التي يغفل عنها بعض المعلِّمين: أسلوب التسلية للمتعلِّم، وتذكيره بنعم الله عليه أن اختاره واصطفاه من بين الناس لدراسة العلم.

هذا الأسلوب يحتاج إليه الطالب والمتلقِّي بين الفينة والأخرى؛ لأن النفس تكسل وتمل، فإذا جاء مثل هذا التذكير من المعلِّم والشيخ كان ذلك له وقع خاص على نفس التلميذ والمتعلِّم، ومن جميل ما قرأتُ في هذا الباب ما نقله الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» عن الفِرَبْرِي تلميذ البخاري أنه قال: «أملى عليَّ يومًا [يعني البخاري] حديثًا كثيرًا، فخاف مَلالي، فقال: طبْ نفسًا؛ فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعة في صناعتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنتَ مع النبي ﷺ وأصحابه»[١].

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٤٥).

حدِّثني أنت أيها القارئ عن وقعها في نفسك الآن، فكيف وقعها إذًا على من قيلت له وهو: (الفِرَبْرِي) رحم الله الجميع؟ ومَن استكان قلبه للعلم، وذاق لذته، وطابت نفسه به لا تعجب أن يدعو بما كان يدعو به والد إمام الحرمين في كل صباح: «**اللهم لا تُعقنا عن العلم بعائق، ولا تمنعنا عنه بمانع**»، كما نقله السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[1].

ولما عشقتُ العلم عشق درايةٍ
سلوت عن الأوطان والأهل والخِلْمِ
وصرتُ بها أدركتُ من ذين هاديًا
بشمسٍ على شمس ونجمٍ على نجمِ[2]

* * *

(١) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٥/ ٧٤).
(٢) من شعر ابن التلاميد التُّركزي الشنقيطي، أحد أعلام القرن الرابع عشر، يُنظر مجموعه المسمى (الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة التركزية).

(٥)

دُرةُ عقد التابعين

رجلٌ ليس له مؤلَّفات، ولا دروس ولا محاضرات، ولا مناصب ولا شهادات، غير أن رسول الله ﷺ وضعه في الصف الأول بعد جيل الصحابة رضي الله عنهم.

روى مسلم عن عمر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**»[١]. **ثلاثةُ معالم رئيسة جعلت أُويسًا يرتفع إلى هذه العظمة:**

الأول: يكمنُ في تلك الجلسة الدائمة عند أقدام العجوز، بعيدًا عن الشهرة، واللهث خلف سرابها الزائل، في مشهد برٍّ كبير، وتفرغ جليل.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٢)، «كتاب الفضائل، باب من فضائل أُويس القَرَني رضي الله عنه».

الثاني: الصبر عند البلاء، والمضي بتلك الأوجاع بلا شكوى، حيث سألَ ربَّه أن يبقي في جسده بقعة تحت ثيابه تذكِّره بماضي المرض، حتى يظل القلب متحفِّزًا للشكر، تصرخ به في خلواته، تذكره بنعم الله عليه.

الثالث: الانتصار على النفس والعيش مع غَبْراء الناس، حيثُ أجساد الفقراء الضعيفة، وأوجاعهم المضنية، وبيوتهم المتواضعة.. هناك يشعر أُويس بعظمة الانتصار على النفس! معالم رئيسة لا تكاد تجدها في قواميس دورات النجاح والتميز في هذا العصر، والله المستعان!

راحــةُ الفضلِ مـن أهـل اليمـ
ـــنِ اتحفتنا بـأُويـس الـقَـرَني
درةُ عـقـد الـتـابـعـين النجبا
شيخ أهل الزهد قطب الزمنِ[1]

* * *

(١) أبيات منشورة في الشبكة العنكبوتية لم تُنسب لقائل.

جَرِيدَة الموَارد

- **الإبانة الكبرى**، لابن بطة، تحقيق رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى والثانية، ١٤١٥، ١٤١٨، ١٤٢٦هـ.
- **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- **اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى**، لابن رجب، تحقيق جسم الفهيد الدوسري، مكتبة دار الأقصى، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- **أخلاق النبي ﷺ وآدابه**، لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق صالح بن محمد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- **آداب الشافعي ومناقبه**، لابن أبي حاتم، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، لابن مفلح، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عمر القيام، عالم الكتب، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- **أسباب النزول**، للواحدي، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **أصول السنة**، لابن أبي زَمَنِين، تحقيق عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، للشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- **الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية**، لعمر بن علي البغداديُّ الأزجي البزَّار، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
- **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، للقاضي عياض، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- **الأمثال**، لأبي عُبيد القاسم بن سلَّام، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- **الإيمان** (ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته)، لأبي عُبيد القاسم بن سلَّام، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- **البداية والنهاية**، لابن كثير، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤١٨-١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **بغية السائل من أوابد المسائل**، لوليد المهدي، دار الرافّ، ٢٠١٨م.
- **بهجة المجالس وأنس المجالس**، لابن عبد البر، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، من دون تاريخ.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، للزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

- **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- **تاريخ دمشق**، لابن عساكر، تحقق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- **التبيان في آداب حملة القرآن**، للنووي، تحقيق محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- **التحرير والتنوير** (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.
- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، للمباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **تخريج أحاديث الإحياء** (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار)، لأبي الفضل العراقي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- **التذكرة الحمدونية**، لأبي المعالي علي بن حمدون، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، لعبد العظيم المنذري، تحقيق مصطفى محمد عمارة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- **التعريفات**، للجُرجاني، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **تعظيم قدر الصلاة**، لمحمد بن نصر المَرْوَزِي، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **تغليق التعليق على صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **تفسير ابن أبي حاتم** (تفسير القرآن العظيم)، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ.
- **تفسير ابن عطية** (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **تفسير ابن كثير** (تفسير القرآن العظيم)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- **تفسير البغوي** (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- **تفسير الثعالبي** (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، تحقيق محمد علي معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- **تفسير السعدي** (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- **تفسير الطبري** (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- **تفسير القرطبي** (الجامع لأحكام القرآن)، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- **تفسير ابن جزي** (التسهيل لعلوم التنزيل)، تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **تفسير عبد الرزاق**، دار الكتب العلمية، تحقيق د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٩هـ.
- **تكميل النفع بما لم يثبت به وقف ولا رفع**، لمحمد عمرو بن عبد اللطيف، مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث العربي، الجيزة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، لابن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

- **تنبيه المغترِّين**، لعبد الوهاب الشعراني، تحقيق د. أحمد عبد الرحيم السايح، توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

- **التنوير شرح الجامع الصغير**، للأمير الصنعاني، تحقيق د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

- **التهجد وقيام الليل**، لابن أبي الدنيا، تحقيق مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي، مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

- **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للمزي، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **تهذيب اللغة**، للأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

- **التوبة**، لابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، مصر.

- **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، التتمة تحقيق بشير عيون، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، تعليقات أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، (التتمة): دار الفكر، ١٣٨٩- ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩- ١٩٧٢م.

- **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم**، لابن رجب، تحقيق شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- **جامع بيان العلم وفضله**، لابن عبد البر، تحقيق فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ**، لابن أبي زيد القيرواني، تحقيق محمد أبو الأجفان، عثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، لأحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت.
- **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، للسخاوي، تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نُعيم الأصبهاني، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، صورتها: دار الكتاب العربي، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- **الداء والدواء**، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للسيوطي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **ديوان امرئ القيس**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.
- **ديوان حافظ إبراهيم**، ضبطه وصحَّحه وشرحه ورتَّبه: أحمد أمين، أحمد زين، إبراهيم الأبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.
- **ديوان حسان بن ثابت**، شرحه وكتب هوامشه عبد. أ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
- **ديوان دِعْبِل الخُزاعي**، صنعه د. عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **ديوان ذي الرُّمة**، شرح أحمد بن حاتم الباهلي، رواية أبي العباس ثعلب، تحقيق عبد القدوس أبي صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ١٩٨٢م.
- **ديوان علي بن الجهم**، تحقيق خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- **ديوان كعب بن زهير**، تحقيق علي عافور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، لابن حبان البُستي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، محمد عبد الرزاق حمزة، محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **زاد المعاد في هدي خير العباد،** لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- **الزهد والرقائق،** لابن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **الزهد،** لأبي داود السِّجستاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم بن محمد، غنيم بن عباس بن غنيم، دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- **الزهد،** للإمام أحمد، تحقيق يحيى بن محمد سوس، دار ابن رجب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.

- **السلسلة الصحيحة،** للألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤٢٢هـ/ ١٩٩٥، ١٩٩٦، ٢٠٠٢م.

- **السلسلة الضعيفة،** للألباني، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- **السنة،** للخَلَّال، تحقيق د. عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

- **سنن ابن ماجه،** تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، محمَّد كامل قره بللي، عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

- **سنن أبي داود**، تحقيق شعَيب الأرناؤوط، محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- **سنن البيهقي**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **سنن الترمذي** (الجامع الكبير)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
- **السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية**، لابن تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.
- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **شرح أبيات سيبويه**، لأبي محمد السيرافي، تحقيق الدكتور محمد علي الريح هاشم، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، للالكائي، تحقيق أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، الطبعة الثامنة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- **شرح الحكم العطائية**، لابن عبَّاد النَّفَري الرُّنْدِي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- **شرح السنة**، لأبي محمد البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- **شرح المعلَّقات السبع**، للزَّوْزَني، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- **شرح صحيح مسلم**، للنووي (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- **شعب الإيمان**، للبيهقي، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- **صُبْح الأعشى في صناعة الإنشاء**، لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **صحيح ابن حبان** (ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- **صحيح أبي داود** (الأم)، للألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- **صحيح البخاري** (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- **صحيح مسلم** (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- **صفة الصفوة**، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- **صيد الخاطر**، لأبي الفرج ابن الجوزي، عناية حسن المساحي سويدان، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- **طبقات ابن سعد**، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

- **طبقات الحنابلة**، لابن أبي يعلى، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، دارة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.

- **طبقات الشافعية الكبرى**، للسبكي، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

- **العزلة والإنفراد**، لابن أبي الدنيا، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار الوطن، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- **العقد الفريد**، لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

- **العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**، لابن عبد الهادي المقدسي، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

- **العلل ومعرفة الرجال**، لأحمد بن حنبل (رواية ابنه عبد الله)، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، دار الخاني، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- **عمل اليوم والليلة**، لابن السُّنِّي، تحقيق عبد الرحمن كوثر البرني، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- **عيون الأخبار**، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.
- **الفتاوى الكبرى**، لابن تيمية، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصحَّحه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- **الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني**، للشوكاني، تحقيق محمد صبحي حلاق، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، اليمن.
- **الفتن**، لنُعيم بن حمَّاد، تحقيق سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **الفروع** (ومعه تصحيح الفروع لعلاء الدين علي بن سليمان المرداوي)، لابن مفلح، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- **الفوائد**، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، للعِز بن عبد السلام، تحقيق د. نزيه كمال حماد، د. عثمان جمعة ضميرية، دار القلم، دمشق.
- **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض.
- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- **الموطأ**، للإمام مالك، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**، لابن حبان البُستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- **مجلة البحوث الإسلامية**، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- **مجمع الأمثال**، للميداني، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

- **المجموع شرح المهذب** (مع تكملة السبكي والمطيعي)، للنووي، دار الفكر.
- **مختار الصحاح**، للرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- **مختصر (قيام الليل)**، لمحمد بن نصر المَرْوَزِي، اختصره أحمد بن علي المقريزي، حديث أكادمي، فيصل اباد، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- **المرض والكفارات**، لابن أبي الدنيا، تحقيق عبد الوكيل الندوي، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- **المستدرك على الصحيحين**، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، إشراف: د. يوسف المرعشلي، مصور عن الطبعة الهندية.
- **مسند الفاروق**، لابن كثير، تحقيق إمام بن علي بن إمام، دار الفلاح، الفيوم، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- **مسند أحمد**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- **مسند الدارمي**، تحقيق فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
- **مصنف بن أبي شيبة**، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق مجموعة من الباحثين، تنسيق: د. سعد الشَّثري، دار العاصمة للنشر والتوزيع، دار الغيث للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٩، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٨، ٢٠٠٠م.
- **معاني القراءات**، للأزهري، مركز البحوث في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- **المعجم الكبير**، للطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، (المجلد ١٣)، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن حسن قائد، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.
- **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، لأبي العباس القرطبي، تحقيق محيي الدين ديب ميستو، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- **مناقب الإمام أحمد**، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- **مناقب الشافعي**، للبيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.
- **الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم**، لابن حزم، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **الناسخ والمنسوخ**، لأبي القاسم هبة الله بن سلامة البغدادي المقري، تحقيق زهير الشاويش، محمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

- **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، للمقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٠٠ - ١٩٩٧م.

- **النفقة على العيال**، لابن أبي الدنيا، تحقيق د نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم، الدمام، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- **نونية ابن القيم** (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)، تحقيق محمد بن عبد الرحمن العريفي، ناصر بن يحيى الجنيني، عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل، فهد بن علي المساعد، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

- **هدي الساري** (مقدمة فتح الباري)، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

* * *



تنبثق قلائد هذا الكتاب لتكون ذِكْرى للقلب، وتذكيرًا له من طوفان الفتن والشبهات، وإحياء لذكرى المصطفين الأخيار لعلنا جميعًا أن نكون ممن أخلصهم الله بخالصة ذِكْرى الدار.

قلائد الذِّكْرى عظاتٌ نسجت من بصائر الذكر، ومعالم أخذت من نور السنن، ورشفاتٌ من مورد السلف العظيم، وقطراتٌ من ندى مجالس ذكراهم: وصلًا لعهدهم، وسيرًا على منوالهم: «ذكُرنا بربنا».

قلائد الذِّكْرى تذكيرٌ على طريق العلم والدعوة لراقمها أولًا، لعل الغريق ينجو، ولعل المتخلِّف يلحق، ولعل المتأخِّر يتقدَّم، وعسى أن تكون ذخرًا لنا عند الله بعد مماتنا.

9786039116103

ردمك: ٣ - ٠ - ٩١١٦١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

شركة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

www.bayanbooks.com
sales@bayanbooks.com
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٢٢٥٠١٦٧